الفصل التاسع

الموقف العربي من المشروع الصهيوني

عرفنا كيف خطط الغرب الإمبريالي من أول نابليون لتوطين اليهود في فلسطين ، وكيف استطاع هرتزل أن يتوصل إلى تأسيس المنظمة الصهيونية وإدخال المشروع الصهيوني إلى حيز التنفيذ . كما عرفنا كيف كان وعد بلفور هو التنفيذ العملي للمشروع الصهيوني . وعرفنا دور كل من انجلترا وأمريكا في رعاية المشروع حتى أعلنت الأمم المتحدة قرار التقسيم .

فماذا عن الدولة العثمانية التي كانت فلسطين تابعة لها ؟ وعن موقفها من المشروع الصهيوني ؟

الدولة العثمانية

قام العثمانيون، وهم مجموعة من القبائل التركية، بقيادة زعميها عثمان الأول ، بتأسيس الدولة العثمانية. بدأ العثمانيون بتوحيد الإمارات التركية في آسيا الصغرى التي مدت سلطانها إلى جنوب أوربا والشرق الأدنى القديم. ومع حلول منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، كانت الدولة العثمانية الناشئة قد ضمت مناطق كبيرة من البلقان واليونان، وفتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣. وقد استولى العثمانيون على سوريا وفلسطين ومصر (١٥١٦ . ١٥١٧) ومعظم المجر (١٥٢٦) والعراق (١٥٣٠). ومع منتصف القرن السادس عشر الميلادي، حيث وصلت الإمبراطورية إلى أعلى قمة نفوذها، بسط العثمانيون نفوذهم على شبه الجزيرة العربية وضموا معظم شمال أفريقيا وكثيراً من الجزر في البحر الأبيض المتوسط. وكانت تحكم الإمبراطورية العثمانية نخبة عسكرية تركية مسلمة.

وقد بدأ مد العثمانيين في التوقف عام ١٦٨٣ حينما فشلوا للمرة الثانية في الاستيلاء على فيينا. وبعد ثلاثة أعوام فقدوا بودابست، ووقعوا أول معاهدة يقرون فيها بهزيمتهم.

وبالتدريج، أخذ النفوذ العثماني في الانحسار، إذ بدأت روسيا في الزحف من الشمال، وظهرت الدولة الصفوية (الشيعية) التي ناصبت الدولة العثمانية العداء، وظهرت دول أوربا البحرية ومن بينها إسبانيا والبرتغال، ثم إنجلترا وفرنسا اللتان قلصتا نفوذ الدولة العثمانية واستولتا على بعض أرضها وعلى أجزاء من العالم الإسلامي إلى أن سقطت الخلافة العثمانية على يد ثورة تركيا الفتاة. وتمزقت الإمبراطورية العثمانية تماماً مع الحرب العالمية الأولى، واستقلت كل الدول التي كانت تابعة لها. (١)

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة الله في ميراث الأرض .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }
(الحج : ١٠٥)

فالصالحون لعمارة الأرض هم ورثتها ، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة .

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير وفق هذه السنة آخذة بشروط التمكين وأسبابه أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية .

فلقد انحرف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهر القلب ويزكي النفس ويسمو بالأخلاق ، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يعمر الأرض ويصلحها ، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ ج٢ الباب الثالث : الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام. مرجع سابق .

وكان نتيجة ذلك أن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القراملیون في ليبيا)(١) وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها (٢)

الحقيقة أنه منذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحا للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفا من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقا لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديا . " (٣)

الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى اتجهت الدولة العثمانية إلى دخولها إلى جانب دولتي الوسط (ألمنايا والنمسا) على أمل استرداد ما اقتنصته منها دول الوفاق (انجلترا / فرنسا) . وإنقاذا لنفسها ولما تبقى تحت يدها من ولايات عربية من مخططات اقتسام دول الوفاق للدولة العثمانية فيما بينهم .

وأعلنت الدولة العثمانية الجهاد المقدس متحالفة مع دولتي الوسط (ألمانيا / والنمسا) في نوفمبر ١٩١٤ ولقد كان لهذا النداء " الجهاد " صدى قوي بين المسلمين ، وكان

---

(١) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص٩٤.

(٢) لمزيد من التفصيل حول أسباب ضعف وسقوط الدولة العثمانية انظر " الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط " علي محمد محمد الصلابي المبحث الثامن (أسباب سقوط الدولة العثمانية) .

(٣) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

مزعجا لانجلترا التي كانت تحكم الهند وجنوب شرق أسيا الذين يصل تعدادهم إلى حوالي ٥٠ مليونا من المسلمين على الأقل .

أما في البلاد العربية فقد أثار إعلان الجهاد حماسا ، ثم لم يلبث أن ساد الحذر بين زعماء العرب فقد كانت الأزمة بين المشرق العربي (١) والترك لا تزال قائمة ، ولم يؤد المؤتمر العربي الأول ولا التسوية العربية التركية التي أعقبته إلى نتائج مرضية ، ولذلك نما تيار فكري يدعو إلى التريث في تأييد فِعْلي للدولة العثمانية في الحرب والاتصال بكافة الأطراف المعنية لمعرفة موقفها من المطالب العربية على أن الدور الذي قام به الشريف الحسين بن علي شريف مكة كان هو أبرز الأدوار العربية خلال الحرب العالمية الأولى . (٢)

الشريف حسين والثورة العربية

كان الحسين بن علي يعمل على بناء دولة عربية تشمل المشرق العربي كله منذ أن أسندت إليه شرافة مكة في أعقاب انقلاب ١٩٠٨ ، وقام بأوجه نشاط سياسي واسع النطاق نسبيا سواء في شبه الجزيرة العربية أو خارجها ، وقام الأمير عبد الله بن الحسين بالاتصال بالسير رونالد ستورز السكرتير الشرقي في إدارة المندوب السامي البريطاني في القاهرة قُبَيْل نشوب الحرب ، وعمل الأمير عبد الله على استشفاف رأي السلطات البريطانية إزاء محاولة الأتراك العثمانيين إقصاء الشريف عن موقعه ، فكان طبيعيا أن أبدى الإنجليز تعاطفا مع الشريف بعد وقوع الحرب وأخذت تنشط قنوات الاتصال بين شرافة مكة وإدارة المندوب السامي بالقاهرة . (٣)

وعندما بدأت الحرب أعلنت انجلترا وفرنسا الحماية على العرب مُنْهِية علاقة الدولة العثمانية نهائيا بالعرب وطلبت من الزعماء العرب الوقوف معهما في أثناء الحرب في مقابل الوعد بمنحهم الحرية والاستقلال . وجد العرب أنفسهم وقد حولتهم عصور التخلف والتبعية والاحتلال إلى عبيد لا يحسنون الكر والفر بل يحسنون الحَلْبَ والصَّر

---

(١) البلاد العربية الواقعة في آسيا والتي تشمل الجزيرة العربية والعراق والشام .

(٢) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧١، ١٧٢ .

(٣) نفسه ص ١٧٢ .

، فاتجهوا إلى الشريف حسين لعله يكون حامي العروبة والإسلام من كيد الأعداء اللئام .

قام الشريف حسين (شيخ القبيلة العربية) بالتفاوض مع انجلترا (زعيمة الإمبريالية) فوعدته بتحرير العرب من المحتل التركي إذا عاونها العرب في الحرب وتحقق لها الانتصار فيها ، ولكن متى كان للمستعمر المستبد وعد ؟! ومتى كان للضعيف المتخلف حق في عالم لا يعترف إلا القوة ؟!

ولقد تُبُودِلَت مراسلات طوِيلة مِن ١٤ من يوليو ١٩١٥ حتى ٣٠ من يناير ١٩١٦م بين المندوب السامِي البريطاني فِي القاهِرة السير هنري مكماهون، وبين الشَّرِيف حسِين فِي مكة، وكان هدف الحكومة الإنجليزية أن تستغل سخط العرب ضِد المحتل التركِي، واعِدة الشعوب العربِية بالاستقلال بعد انتصار انجلترا وحلفائها على الأتراك ومن يحالفهم .

وكان الشريف حسين في تلك المراسلات يعبر عن طموحاته ، وكذلك عن رأي وطموحات بعض الزعامات العربية الشامية ، وفي إحدى هذه الرسائل حدد الشريف حسين المطالب العربية بما يلي :

١- أن يتولى هو الخلافة الإسلامية بدلا من الخليفة العثماني .

٢- استقلال البلاد العربية من (مرسين) و(أطنة) شمالا إلى الحدود العراقية الفارسية والخليج العربي شرقا والشام والجزيرة العربية . أي إقامة دولة عربية تضم العراق والشام وشبه الجزيرة العربية تقريبا .

ولكن الإنجليز رفضوا مطلب الخلافة ، كما رفضوا طلب الشريف حين في أن يكون ملكا على العرب بحجة أن العديد من مشيخات الجزيرة العربية على علاقات تعاهدية مع بريطانيا ، وأن هذه المشيخات وبريطانيا لا توافق على أي تغيير في وضعهم ، وكان عبد العزيز بن سعود قد عقد اتفاقية " دارين " مع انجلترا في عام ١٩١٥ (١) ومن ثمَّ يكون الحجاز فقط هو المتبقي ليكون تحت سيادة الشريف حسين ، أما الشام

---

(١) اتفاقية دارين أو اتفاقية القطيف هي تلك الاتفاقية التي وقعها عبد العزيز بن سعود مع الإنجليز بعد هزيمته من الدولة العثمانية وهي اتفاقية وضعت دولة عبد العزيز بن سعود التي تضم الرياض والقصيم والإحساء في مصاف دويلات الخليج الخاضعة للتوجيه الإنجليزي ، ولكن عبد العزيز بن سعود استطاع خلال الحرب العالمية الأولى أن يحتفظ بدولته بعيدة عن التورط في الحرب .

فقد أشار المندوب السامي إلى أن لفرنسا مصالح فيما غرب حماة وحلب وحمص ودمشق ،وبما أن الجزء الجنوبي من العراق قد سقط في يد القوات الإنجليزية حينذاك ، فقد استبعده المندوب السامي من المشروع الشريفي ، كما أخرج مرسين وأطنة من الدول العربية المستقلة على أساس أنهما ليستا عربيتين .

وجد الشريف في الموقف الإنجليزي صلابة في نفس الوقت الذي أسند فيه الأتراك الحكم في جدة إلى وهيب باشا الذي كان يخطط لإقصاء الشريف حسين لأنه كان يماطل في الاشتراك الفعلي بقواته إلى جانب القوات العثمانية التي كانت تقاتل بقيادة جمال باشا على الجبهة المصرية ، ولقد خسر جمال باشا المعركة وارتد حانقا على العرب ، وألقى القبض على زعماء الحركة العربية في الشام استنادا إلى وثائق عثر عليها في القنصلية الفرنسية تدينهم – من وجهة النظر العثمانية – بالتآمر مع أعداء الدولة ، وقُدِّم هؤلاء الزعماء العرب إلى المحاكمة وصدرت ضدهم أحكام إعدام بالجملة .

وجد الشريف حسين أنه إن لم يُعلن الثورة فإن الأتراك سيقضون عليه فأعلن الثورة في يونيو ١٩١٦ ، دون أن يكون قد حصل من الإنجليز على اعتراف صريح بحق العرب في الاستقلال معتمدا على حسن تقييم الإنجليز والحلفاء لموقف العرب المناصر للحلفاء في الحرب ، وما كان الإنجليز أو الحلفاء ليقيموا وزنا إلا لمصالحهم هم أولا .

أعلن الشريف الجهاد ضد الأتراك ، ونجحت قواته في تصفية الوجود العسكري التركي في الحجاز باستثناء حامية المدينة ، وزحفت قواته شمالا واستولت على العقبة ، واتجه الفيلق العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين إلى القدس ، ودخل دمشق ثم حمص وحماة وحلب ومنع الأمير القوات العربية من دخول المنطقة المخصصة لفرنسا طبقا لاتفاقية سايكس – بيكو في الوقت الذي دفعت فيه القوات الإنجليزية القوات العثمانية في العراق أمامها حتى استولت القوات الإنجليزية على بغداد ، وأصبحت على مقربة من الموصل عندما أعلنت الدولة العثمانية رغبتها في وقف

القتال ، فعقدت هدنة " مدروس " في نوفمبر ١٩١٨ ، وفي أعقابها استولت القوات الإنجليزية على الموصل . (١)

وبدلا من أن تساعد انجلترا الشريف حسين – كما كان يأمل – على تكوين خلافة عربية مستقلة مع إدخال فلسطين في هذه الخلافة بعد انتهاء الحرب ، تغيرت مخططات بريطانيا بخصوص فلسطين ارتباطا بسير العمليات الحربية ضد تركيا مما أوجب دخول الحكومة البريطانية في تآمر مع الصهيونية قبل الحرب . وبعد أن أصبحت بريطانيا إحدى الدول المنتصرة فسخت بسرعة فائقة الاتفاق مع فرنسا الخاصة بفلسطين ، وتبرأت من وعودها في تكوين دولة عربية مستقلة . (٢)

مشى الشريف حسين إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى طمعا في استقلال الحجاز والعرب وهو في ذلك يستند إلى اتفاق عقد بينه وبين انجلترا ، كان مصيره مصير كل اتفاق يُعْقَد بين القوي والضعيف (٣)

لقد كان للثورة العربية بقيادة الشريف حسين وأولاده ضد الدولة العثمانية عظيم الأثر في انتصار انجلترا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى وزوال الحكم العثماني عن البلاد العربية " فقد أحدثت ثورة العرب تحولات كبيرة في مجريات الحرب في الشرق العربي ، وتعطلت مواصلات الأتراك وحوصرت حاميتهم ، واعتمد " أللنبي " على الجيوش العربية تحت قيادة فيصل بن حسين ، وحين أصبحت جيوش فيصل على مقربة من دمشق في سبتمبر ١٩١٨ ، حيث دخلها مع " أللنبي " وصحبهم ضباط الاستخبارات البريطانية (لورانس) (٤) .

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧٣

(٢) انظر كتاب " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " للكاتبة السوفيتية جالينا نيكيتينا مرجع سابق ص ٢٥ .

(٣) محمد جميل بيهم " الحلقة المفقودة في تاريخ العرب " مطبعة مصطفى الحلبي ص ٧٩ .

(٤) لورانس ضابط الاستخبارات البريطانية الذي عايش أحداث ثورة الشريف حسين يوما بيوم فقد عمل مستشارا للشريف حسين وأولاده ، ورافق فيصل الأول بن الشريف حسين في دخوله دمشق .د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " الهيئة العامة للكتاب ص ٢٢ .

يقول " لورانس " في كتابه عن الثورة العربية : " فتح أهل دمشق أبوابهم في وجه الجيش العربي ، وقابلوه بالتهليل والتكبير والترحاب العظيم " (١)

لقد استغلت انجلترا حينئذ مكانة الشريف حسين الدينية وطموحاته العائلية لكي تحقق أكبر قدر من الاستفادة لموقع الحلفاء ، ولتحقيق انتصاراتهم على الجبهة العربية في الحرب العالمية الأولى . ولم يكن ذلك يتحقق للشريف وأولاده ، ولا لبريطانيا وحلفائها ، لو لم تكن صورة الأتراك مقيتة في أعين العرب الذين قاسوا طويلا من قسوة الحكم العثماني ، وظلم الجنرالات الذين توفدهم عاصمة الخلافة للتحكم في الأقاليم التي تخضع لسيطرتهم . (٢)

لقد قام الشريف حسين بدوره في صفقته مع انجلترا وانتظر أن تفي انجلترا بوعدها وإذا بانجلترا بدلا من أن تصدر وعدا باستقلال الدول العربية وحقها تصدر وعدا لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين بدلا من .

أما الوعود التِي أُعطيت لِلعربِ خِلال الحرب مِن ١٩١٤ . ١٩١٨ لاستدراجهم إلى جانِب الحلفاء ضِد الترك فقد انتهكت دائِما، وكان نفاق الاستعمار الإنجليز فاضِحًا.

وعِندما صار الشرِيف حسِين بِمكة ملكًا على الحجاز منذ عام ١٩١٦ طلب إيضاحات لإعلان بلفور، فوجَّه إلِيهِ المقِيم العام بِمِصر رِسالة (يطلق عليها رِسالة هوجارث، وهو اِسم الضابِط الذِي نقلها) يؤكد له فِيها أن : الاستِقرار اليهودي فِي فلسطين لن يسمح بِهِ إلا إذا كان متوافِقا مع الحرية السياسِية والاقتصادية للسكان العرب " .

وفِي أثناء اللقاء بين الشرِيف حسِين والقومندان هوجارث فِي يناير ١٩١٨ أَكد هوجارث أن فلسطين كانت داخِل حدود الدولة العربِية التِي تقِرها إنجلترا، وأضاف هوجارث أن " الملك لن يقبل دولة يهودية فِي فلسطين " .

---

(١) لورانس العرب " الثورة العربية " ص ٢١٣ نقلا عن د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٦ .

(٢) د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " مرجع سابق ص ٢٦ .

وفِي ١٦ من يونيو عام ١٩١٨ ألقى هوجارث هذا محاضرة عن إجابة الحكومة البريطانية على رِسالة (حزب سوريا المتحدة) أمام رِجالات سوريا المجتمعين فِي القاهِرة، فقال : " إن حكومة صاحِب الجلالة تُرِيد أَن تكون جمِيع الأمم الناطِقة بِالعربِيةِ متحررة مِن النِيرِ العثماني، وأن تعِيش فِي ظِل حكومة تختارها بِنفسِها " (١)

وقد كتب الملك فيصل (هو فيصل بن الشرِيف حسِين) ملك الحجاز، وكان يعتقد حينئذ بحسن نية الاستعماريين . كتب فِي مارس ١٩١٩ إلى الزعِيم الصهيوني فيلكس فنكفورتر :

" إننا نشعر بأن العرب واليهود ينتمون إلى نفس الجنس، وأنهم عانوا نفس الاضطهاد من جانِب القوي الأقوى، ونحن العرب ننظر بتعاطف عمِيق إلى الحركة الصهيونية، ونعمل معًا على تجدِيد الشرق الأدنى ونهضته. إن حركتينا متكاملتان، وفِي سورِية متسع لنا ولكم (ولنذكر أن فلسطين كانت جزءًا من سورِية آنذاك) بل إني أعتقِد أن أَحدا مِنا لا يستطِيع أن ينجح بدون الآخر، وإني لأؤمل فِي مستقبل تساعدوننا فِيهِ ونساعدكم، حتى تستطِيع البِلاد التِي لنا فِيها مصالح مشتركة أن تأخذ مكانها من جدِيد فِي مجتمعات الشعوب المتحضرة فِي العالِم " (٢)

فقد اِستقبل الملك فيصل الصهيونيين إذن ضيوفًا كرامًا، وهو لم يكن يتصور بمفهومه عن الضيافة أن الضيف يمكِن أن يطرد مُضِيفه الذِي تلقاه بالأحضان.

ولقد عاضدت القوِي الإمبريالية الصهيونيين وتصرفت على هذا النحو بِأسلوب النفاق المتعمَّد، فأعلن مكماهون فِي رِسالة وجهها إلى صحِيفة التيمس فِي ٢٣ من يوليو ١٩٣٧ قَوْله: " إن من واجِبِي أن أعلن لِلملأِ، وبكل صراحة ووضوح، أني لم أكن أنوي أن أدخل فلسطين فِي منطقة الاستِقلال العربِي عِندما أعطيت ضمانات للملك حسِين " .

وفِي ٩ من نوفمبر ١٩١٨ نشرت فرنسا وإنجلترا إعلانًا مشتركًا، بِالمنطوقِ التالِي: " إن الهدف الذِي تتوخاه فرنسا وبريطانيا العظمِي هو التحرِير الكامِل والنهائي للشعوب

---

(١) دِ. كنعان " صراع فِي أرض السلام " .

(٢) حايم وايزمان " التجرِبة والخطأ. صِ ٢٤٥ –٢٤٦ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

التِي طال اضطهادها على يدِ الأتراك، وإقامة حكومات وإدارات قومِية تستمد سلطتها من الاختِيار الحر للشعوب المدجنة " (١)

وقد كتب اللورد بلفور فِي مذكرة بتاريخ ١١ من أغسطس ١٩١٩ ما نصه : " إن القوِي العظمِي الأَربع . إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا . قد انحازت إلى الصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية صوابًا أم خطأ، خيرًا أم شرًّا، فإن جذورها تمتد فِي تقاليد عرِيقة، وفِي حاجات قائِمة، وفِي آمال مستقبلة ذات أهمية أعمق بِكثِير مِن الرغبات وألوان الحرمان التِي يشعر بِها سبعمائة ألف عربِي يسكنون اليوم هذِهِ الأرض القدِيمة، وفِي رأيي أن هذا حق، ولكن ما لم أفهمه مطلقًا ولا قدرت على فهمه هو كيف يمكِن أن يكون هذا متفِقًا مع الإعلان (الإعلان الفرنسي الإنجليزي) والتعهد (الاتفاقات بين حَسِين ومكماهون) وبيانات لجنة التحقِيق) (٢)

وأمام هذا الازدواج المنافِق قال بلفور نفسه لِلقاضِي براندِيز فِي يونيو ١٩١٩: " كان مِن العسِير علىَّ أن أتصور كيف سيتمكن الرئِيس ولسون من التوفِيق بين اتصاله بالصهيونية وبين نظرِية حق تقرِير المصير" .

وبعد قلِيل كتب فِي مذكرته فِي ١١ من أغسطس عن مستقبل فلسطين قائِلا: " أما عن فلسطين، فإن القوِي الكبرى لم تقم بِأَي تقييم يتسم بالنزاهة، ولم يكن لها أي إعلان لا تنوي انتهاكه، حرفِيا على الأقل " .

والواقِع أن النفاق قد بلغ أوجه؛ لأن فلسطين كانت فِي الوقت نفسه موعودة للصهيونيين، ولنفس الأسباب التِي تزعم أن اليهود فِي بِلادهم المتفرقة ولاسيما فِي الولِايات المتحدة قد مارسوا الضغط لِصالِح انضمامها إلى الحلفاء. وعلى هذا الغموض الأساسِي فرِضت (الوِصاية) على فلسطين، واختيرت لها إنجلترا ٢٤ يوليو ١٩٢٢

---

(١) هورِوفتز " الدبلوماسية فِي الشرقيْنِ الأدنى والأوسط " ج ٢ صِ ٣٠ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢) وثائِق عن السيَاسة الخارِجِية البرطانية نشربات وِد وارد أنرتر صِ ٣٤٥. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

اتفاقية سايكس – بيكو

وبينما كانت القوات العربية تحرز انتصاراتها في الشام تكشفت مؤامرة واسعة النطاق على العرب فقد سربت روسيا البلشفية – بعد خروجها من الحرب مهزومة – نصوص اتفاقية ثلاثية عقدتها روسيا القيصرية مع انجلترا وفرنسا لاقتسام الدولة العثمانية وأعلنت روسيا البلشفية رفضها لهذه المؤامرة فاقتصرت المؤامرة على اتفاقية انجلترا وفرنسا ، وعرفت باسم اتفاق سايكس – بيكو وبمقتضاها قُسِّم الهلال الخصيب (الشام والعراق) على النحو التالي :

(أ) تحصل فرنسا على :

١- جنوب الأناضول بما في ذلك أطنة والإسكندرونة .

٢- سوريا ولبنان حتى شمال العراق .

(ب) تحصل إنجلترا على :

١- العراق (ولاية البصرة وبغداد)

٢- أجزاء من جنوب سوريا حتى حدود شبه جزيرة سيناء الشرقية .

٣- حيفا وعكا .

(ج) إقامة نظام دولي في فلسطين .

(د) تقسيم المنطقة العربية الصحراوية بين العراق والشام إلى منطقتي نفوذ : واحدة بريطانية ، والثانية في فرنسية .

وتنفيذا لاتفاقية سايكس – بيكو مُنِعت القوات العربية من دخول بيروت ، وسمحت انجلترا لفرنسا بإنزال قواتها هناك ، وأنزلت العلم العربي المرفوع ، وبرغم ما بذله الشريف حسين لكسب أعضاء مؤتمر الصلح إلى جانب قضية استقلال العرب واجه مواقف أشد تعنتا هو وابناه : فيصل ، وعبد الله .

عَقَد الحلفاء مؤتمرا في سان ريمو في ١٩٢٠ وفيه تقرر إعادة النظر في اتفاقية سايكس – بيكو بحيث يصبح العراق كله وفلسطين تحت الانتداب الإنجليزي ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . (١)

أما الشريف حسين الذي نجحت قواته في إسقاط الحكم العثماني في سوريا لإعلان الدولة العربية الكبرى واجه ضغطا عسكريا كبيرا عليه من جانب عبد العزيز بن سعود الذي أباد قوات الشريف في أول صدام معه في ١٩١٩ م ، عند " تربة " وتابع عبد العزيز توسعاته فأنزل ضربة نهائية بآل الرشيد ، وضم إليه الحائل في ١٩٢١م ، وسيطر على عسير وضغط بشدة على الحجاز في ١٩٢٤ وأنزل هزيمة كبيرة بقوات الشريف حسين الذي لم يلبث أن تنازل عن العرش لابنه " علي " ولكنه لم يصمد إذ استولى عبد العزيز على الحجاز كله ونودي به سلطان نجد وملك الحجاز (١/٨/ ١٩٢٦) ثم عرفت بالمملكة العربية السعودية فيما بعد .

ثم تطلع عبد العزيز إلى حسم النزاع حول عسير التي كانت تحت حكم الأدارسة ويعمل الإمام يحيى حميد الدين على السيطرة عليها دون آل سعود الذين كانوا يعتبرونها جزءا من الدولة السعودية ، وفشلت محاولات تسوية النزاع بين الطرفين السعودي واليمني حتى وقعت الحرب بينهما وفيها انتصر عبد العزيز بن سعود ، وأصبحت عسير جزءا من المملكة العربية السعودية بمقتضى معاهدة الطائف السعودية – اليمنية في ١٩٣٤ . (٢)

لكن أين مصر من هذه الأحداث ؟ وأين الدور المصري ؟

موقف مصر من المشروع الصهيوني

كان محمد علي وخلفاؤه يعملون على الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وقد حققوا في هذا المجال قدرا كبيرا من النجاح فاكتسبت مصر شخصية مستقلة عن بقية أجزاء الدولة العثمانية مما أدرى إلى انعزالها عن بقية أجزاء الدولة في الشرق العربي الذي كان خاضعا للحكم العثمانيين المباشر ، خصوصا وأنه بعد ذلك اتجهت مصر نحو أفريقيا وظلت الوحدة السياسية بين مصر والسودان مركز الثقل في سياسة ونشاط

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧٤

(٢) نفسه ص ١٧٥ .

الخديوين بل ونشاط الحركة الوطنية المصرية ، فساعد هذا بدوره على انصراف مصر عن الشرق العربي بقضاياه ومشاكله .

ثم حدث الاحتلال البريطاني لمصر فزاد من عزلتها عن الشرق العربي إذ أن هذا الاحتلال جعل قضية مصر تختلف موضوعيا عن قضية الشرق العربي ، فبينما كانت الحركة الوطنية في مصر تكافح ضد السيطرة الأوربية وتتطلع إلى تأييد ومساعدة الدولة العثمانية كانت الشعوب العربية في الشرق العربي تكافح في سبيل تحررها من السيطرة العثمانية وتتطلع إلى تأييد الدول الأوربية ، فأعداء مصر كانوا حلفاء الحركة القومية في الشرق العربي وأعداء هذه حلفاء لمصر . (١)

لقد كانت مصر – أكبر الدول العربية – بعيدة عن روح الثورة العربية التي قادها الشريف حسين حيث نظر إليها المصريون بكثير من التحفظ والحذر ، لأنهم كانوا منغمسين في مواجهة حادة مع الاحتلال البريطاني لمصر في ذلك الوقت إلى جانب شعورهم بأن الأتراك ليسوا هم العدو الأصلي ، فقد كانوا ينحدرون نحو النهاية بحكم ضعف الدولة وتدهورها ، إنما الخطر الحقيقي ، يأتي من أطماع أوربا الاستعمارية التي قسمت العالم العربي إلى مراكز نفوذ ومواقع احتلال (٢)

ولكن هذا الوضع أخذ يتغير عندما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ودخلت الدولة العثمانية في حرب ضد انجلترا ، فقد انتهزت انجلترا هذه الفرصة لإنهاء السيادة العثمانية على مصر وفرض الحماية البريطانية عليها عام ١٩١٤م ، وفي أثناء الحرب استبدت بالشعب المصري ، فقد قامت بتجنيد المصريين قسرا للعمل في الخطوط الخلفية ، وصادرت مواشي الفلاحين وحبوبهم بأبخس الأثمان ، وفرضت الأحكام العرفية على البلاد وكممت الصحافة ، ومنعت انعقاد الجمعية التشريعية التي تضم ممثلي الشعب ، وشعر المصري بأنه في سجن كبير .

فلما انتهت الحرب وهزمت فيها الدولة العثمانية أدرك الشعب المصري أنه لم يعد ملتزما بقبول السيادة العثمانية حتى وإن كانت سيادة أسمية ، خاصة بعد أن استولت " جمعية الاتحاد والترقي " على الحكم في اسطنبول سنة ١٩٠٨ وخلعت السلطان عبد

---

(١) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٨١

(٢) د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " مرجع سابق ص ٢٦ .

الحميد ، وأعلنت الدستور ، وأخذت فكرة الخلافة في العالم الإسلامي تضعف رويدا رويدا . (١)

وتطلعت مصر إلى الاستقلال التام لأول مرة عن دولة الخلافة ، وبرزت فكرة القومية المصرية إذ شعر المصريون أنهم أمة واحدة مستقلة عن أي كيان سياسي آخر ، وبالتالي يجب أن يكونوا دولة مستقلة تدين بالولاء لحاكم مصري بعد أن كان ولاؤها للحاكم العثماني .

وهكذا تبلورت الحركة الوطنية حول فكرتين أساسيتين :

الأولى : إنهاء الاحتلال البريطاني لمصر .

الثانية : إعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة . (٢)

وفي سبيل تحقيق هاتين الفكرتين قامت ثورة ١٩١٩م وفيها هبت البلاد تقاوم الجيوش الإنجليزية المحتلة بعنف ، مستعملة ما كان عندها في ذلك الوقت من وسائل بسيطة ، وقابلت إنجلترا هذه الثورة بالشدة وضربت المواطنين بالرصاص ، واعتقلت الزعماء ونفتهم خارج البلاد ، ولجأ المصريون بجانب الرد على وسائل العنف بمثلها إلى المقاطعة السلبية ، فرفضوا مفاوضة بريطانيا ، وقاطعوا " لجنة ملنر " التي قدمت إلى البلاد لتدرس مطلب الشعب عام ١٩٢٠ .

ولم يعد مفر أمام انجلترا وقد التف الشعب المصري كله حول الوفد المصري وقائده سعد زغلول من التفاوض مع سعد زغلول لحل القضية الوطنية ، وكان هذا بداية مرحلة المفاوضات المصرية البريطانية التي استمرت من يونيو ١٩٢٠ إلى أغسطس ١٩٣٦ ، وقد انتهت بتوقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦. (٣)

كان هذا حال العرب إبان تنفيذ المشروع الصهيوني ، زعماء عرب في الجزيرة والشام متصارعون على الحكم وتوسيع ممالكهم ، وهم في سبيل ذلك لا يمانعون من

---

(١) د. علي حسني الخربوطلي " غروب الخلافة الإسلامية " مؤسسة المطبوعات الحديثة ص ١٩٥

(٢) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٨٧

(٣) نفسه ص ١٩٠ .

التحالف مع أعداء الأمة وحرب إخوانهم . وزعماء وطنيين في مصر لا هم لهم إلا استقلال بلادهم غير عابئين بما يجري خارجها من مؤامرات .

الدول العربية وقرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين

يقول السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا :

أن الإنجليز " جردوا أهل فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية من أسلحتهم ، وشردوا قادتهم وسجنوا الألوف من مجاهديهم ، وأرهقوهم ظلما وعدوانا .. في الوقت الذي كانوا يسلحون فيه اليهود ويدربونهم وينظمونهم ويساعدونهم بواسطة هيئة عسكرية إنجليزية .. ظن الإنجليز أن كفة اليهود الحربية أصبحت راجحة ، وأن في استطاعتهم أن يتسلموا فلسطين حسب وعد بريطانيا القديم لهم فأعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين " (١)

كما أن اليهود الصهاينة – والحق يقال – بذلوا مجهودات جبارة على كافة الأصعدة في سبيل تحقيق غايتهم هذه المجهودات لم تؤثر في الغرب الإمبريالي حلفاء إسرائيل فحسب بل أثرت في العرب أيضا فها هو السياسي المصري الكبير الدكتور محمد حسين هيكل يصرح بعد أن هاله ما رأى بنفسه الدعاية الصهيونية في أمريكا يقول " بدأ الصهيونيون ينظمون دعايتهم في صحف أمريكا وفي الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن تنظيم هذه الدعاية عسيرا عليهم . فاليهود في أمريكا يملكون كل أسباب الدعاية . هم أصحاب الصحف الكبرى ، وأصحاب محطات الإذاعة الأمريكية المختلفة ، وأصحاب دور السينما ، وهم المتحكمون في سوق المال الأمريكية أكثر من تحكمهم في سوق المال البريطانية . وهم إلى ذلك ذوو نفوذ ضخم في الانتخابات الرئاسة الجمهورية الأمريكية . فهم الثلث من سكان ولاية نيويورك . ولهذه الولاية الكبيرة من عدد الأصوات في الانتخابات الرئاسية ما يحسب كل مرشح حسابه . ولهذا قيل أن انحياز الرئيس ترومان إلى اليهود في تقسيم فلسطين قد كان مرجعه إلى أن انتخابات الرئاسة كانت ستقع في سنة ١٩٤٨ أي بعد عام أو أقل من نظر الجمعية العامة تقرير التقسيم ، وانه أراد لذلك أن يكفل أصوات اليهود في نيويورك بانحيازه إليهم في مسالة فلسطين " (٢)

---

(١) محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ١٨

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " دار المعارف ج٣ / ص ٢٨

أريتم مدى نجاح الدعاية الصهيونية في أمريكا لقد نجحت لدرجة أنها أوحت للدكتور هيكل رئيس الوفد الذي يمثل مصر في اجتماع الجمعية العمومية العامة للأمم المتحدة أوحت هذه الدعاية الجبارة له بأن اليهود الصهاينة هم المتحكمون في السياسة الأمريكية . رغم أن عدد اليهود في أمريكا يقدر بـ (٦.٠٦٢.٠٠٠) نسمة طبقا لإحصاء سنة (٢٠٠٠) بينما يقدر عدد العرب في أمريكا بتسعة ملايين !!

لكن مع الأسف إن ما يبذله العرب الأمريكان لنصرة حقوقهم لا يساوي شيئا إذا قيس بما يقوم به اليهود الأمريكان لنصرة باطلهم !!!

ولقد حاولت الوفود العربية – آنذاك – كسب تأييد العرب الأمريكيين لصالح حقوق شعب فلسطين وإسقاط قرار التقسيم عند التصويت عليه في الجمعية العامة للأمم المتحدة ولكنهم فوجئوا أن " أن هؤلاء العرب الأمريكيين لم يبق منهم من يعرف اللغة العربية ، بل اندمجوا في الكتلة الأمريكية اندماجا تاما "(١)

وذهبت كل الخطب التي قيلت باللغة العربية أدراج الرياح " على أن الخطب الكثيرة التي ألقاها العرب باللغة الإنجليزية قد أقنعت هؤلاء الأمريكان من أصل عربي بأن الاتجاه إلى تقسيم فلسطين اتجاه ظالم ، وفتحت أعينهم على ما نَبَّه إليه الخطباء العرب من اتجاه السياسة الصهيونية إلى التوسع حتى تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، لكنهم لم يكونوا يملكون أن يصنعوا شيئا من مثل ما يصنعه اليهود الأمريكيون . فلم تكن للعرب سياسة كالسياسة الصهيونية تقررت منذ عشرات السنين ، فالعرب يعملون لتنفيذها بصبر ومثابرة كصبر اليهود ومثابرتهم . ولم تؤيد دولة قوية واحدة سياسة العرب كما أيدت الولايات المتحدة وأيدت روسيا سياسة الصهيونيين . لهذا لم يكن لهذه الحفلة الأمريكية العربية من الصدى ما تخطى حدود فندق بنسلفانيا إلا قليلا "(٢)

إن العرب فشلوا في إقناع الرأي العام العالمي بعدم تقسيم فلسطين في حين نجحت الصهيونية في كسب تأييد أمريكا القوى العظمى فالرئيس الأمريكي ترومان أعلن في افتتاح الجمعية العامة في الجلسة الأولى لبحث مسألة فلسطين " أعلن فيه أن

---

(١) نفسه ص ٣٧
(٢) نفسه ص ٣٨

الحكومة الأمريكية تنظر إلى مقترحات اللجنة التي أشارت بتقسيم فلسطين بعين التقدير والاعتبار " (١)

وكان العرب يتخيلون أن السوفيت قد يعاونهم جريا على سياستهم في معارضة أمريكا معارضة مطردة في كل موقف قد تتخذه ، وجاء قرار روسيا مخيبا لآمال العرب إذ أعلنت موافقتها على تقرير لجنة التقسيم .

وكان من الطبيعي أن يأتي تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين ، وليت العرب عرفوا قدرهم ، وأقروا بعجزهم ، وقدَّروا قوة عدوهم واعترفوا بقرار الأمم المتحدة لهان الأمر ولجنبوا أنفسهم ويلات حروب لا نصيب لهم فيها إلا الهزائم النكراء .

ولكن الذي حدث على النقيض من هذا فالحكام العرب أرادوا أن يضيفوا إلى هزيمتهم السياسية هزيمة عسكرية أيضا تأتي على الأراضي الفلسطينية الباقية !!

فبدلا من دعم الدول العربية للفلسطينيين وقوات المتطوعين لمنع التقسيم ، أو الإقرار بالأمر الواقع الذي فرضه ضعفهم وقوة عدوهم وتواطؤ القوى العظمى ضدهم بقبولهم لقرار التقسيم بعدما فشلت كل الجهود الدبلوماسية في التوصل لأفضل منه بدلا من هذا وذاك ، راح العرب – كما هي عادتهم – يلجئون إلى الخطب الرنانة وإثارة الحماسة الدينية والإقدام على المغامرات غير المحسوبة بغية تصفية حسابات مع بعضهم البعض ، والتنافس على توسيع حدود ممالكهم على حساب دولة فلسطين مستترين وراء الدفاع عن المقدسات الدينية والأرض العربية مزايدين في القومية على أعدائهم من القوى السياسية الذين يرون أن الجهاد الحقيقي إنما يكون من أجل جلاء الاحتلال الأجنبي وإقامة الدستور وتطبيق الديمقراطية ، وتوجهوا إلى الجماهير العربية التي سبق أن ساموهم الخسف والعذاب ، والفقر والجهل والمرض راح هؤلاء الحكام المستبدون يمالئون الجماهير العربية التي كانت تضج بالحماسة للقضية الفلسطينية وتجعلها في مقدمة اهتمامها وقرروا – دون انتظار موافقة حكوماتهم – تحريك الجيوش إلى فلسطين للقضاء على اليهود في غضون أيام قلائل هكذا أوحى حكام العرب لشعوبهم !

---

(١) نفسه ص ٢٨

وليت أنهم أعدوا للحرب عدتها بل أرادوها مظاهرة عسكرية ليس إلا فالجيوش العربية " كان تكوينها أصلا معدا على أساس القيام بالعمليات البوليسية وبغرض إظهار المظهرية فقط "(١) لذا فلا عجب أن يهملوا جمع المعلومات عن قوة العدو الصهيوني ، ليس ذلك فحسب بل إن أعداد القوات التي أرسلوها للقتال لا تتناسب فقط وعدد العرب آنذاك (الذي كان يصل إلى سبعين مليون نسمة ، بالإضافة إلى أربعمائة مليون مسلم في مقابل ستمائة ألف يهودي) بل لا يتناسب مع عدد اليهود المشاركين في المعركة !!

كما نسي هؤلاء الحكام إخطار القيادات العسكرية المشاركة في الحرب إلا في آخر لحظة ، أما عن مقدرة القيادات العسكرية على خوض المعارك ، والتخطيط لها والتنسيق بين الجيوش ، وتدريب الجيوش على القتال وعلى الخطط الحربية فحدث ولا حرج .

وكانت الجيوش العربية قليلة العدد ضعيفة القيادة عديمة الخبرة والتدريب الحديث ضئيل التسلح كان عليها أن تدخل " في مواجهة إسرائيل بصلابتها . كانت الدول العربية تقف في جبهة مفككة يعوزها التنظيم وتفتقر إلى الوحدة ، رجال السياسة فيها عاجزون وركبتهم الأوهام ومتأكدون من تفوقهم لدرجة أنهم اعتقدوا أنه يكفي جمع المعلومات عن العدو في اللحظات الأخيرة قبل القتال ، ويفسر الباحثون هذا الجهل بالتناقض الحاد في الحساسيات والتقديرات التي تميز مشكلة فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي ، وقد انعكس ذلك على العرب حيث لم يتخذوا الأهبة ولم يجروا استعدادا ولم يضعوا أي خطة جادة لمتطلبات الحرب ولم يكن همهم الأول إنزال الهزيمة بالعدو والانتصار عليه وإنما مراقبة بعضهم البعض تربصا وخيفة وحتى في أثناء العمليات العسكرية والاشتباكات المستمرة كان المصريون يخشون الملك عبد الله أكثر مما يخشون بن جوريون على حد ما يراه أحد الباحثين" (٢) وفي الجلسة السرية التي عقدها النقراشي (رئيس الوزراء المصري آنذاك) للرد على استجواب من فؤاد سراج الدين

---

(١) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٦ دار المعارف ط١
(٢) نفسه ص ١٦ مرجع سابق

حول الحرب قال " إن نوري السعيد قد عرض عليه تكوين قيادة مشتركة ، ولكنه رفض لأنه " لا يستطيع أن يتحمل متاعبهم ، ولا يود أن يضع رقبته في أيديهم " (١)

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل : عن الدول العربية التي شاركت في حرب فلسطين : " إن هذه الدول العربية هي التي أضاعت ٧٨,٥% من أرض فلسطين، هل ممكن أن تتخيل أن هذه الدول العربية مجتمعة كلها وَضَعَت في ميادين القتال :

أولا : ما لا يزيد عن ثلاثين ألف جندي على كل الجبهات، في حين أن إسرائيل وضعت ١٠١ ألف جندي ومتطوع .

ثانيا : كان عند إسرائيل على أقل تقدير من ١٢٠: ١٣٥ جنرالا كانوا موجودين في الحرب العالمية الثانية يهود في الجيش السوفيتي في الجيش الأميركي في الجيش الفرنسي وقد استدعوا جميعا لكي يقودوا المعركة .

ثالثا : نحن – العرب – لم يكن لدينا فكرة عن الحرب ولم نكن داخلين لكي نحارب. نحن كنا داخلين بالاتفاق مع الدول المسيطرة، إنجلترا بالتحديد، أننا سوف نبقى في حدود قرار التقسيم .فدخلنا ملتزمين حدود التقسيم لم نتجاوزها، لم يتجاوزها منا أحد .

رابعا : لمَّا اكتشف اليهود ضعفنا بدءوا يتجاوزون الحدود لدرجة أنهم اخترقوا الحدود المصرية وكادوا يطوِّقون الجيش المصري . (٢)

فإذا كان حال الجيوش العربية بهذا الضعف ، والوحدة العربية بهذا التفكك ، والحكام العرب بهذا العداء و التخوين ، فلماذا أقدم حكام العرب على الحرب ؟

والجواب ببساطة أو بمرارة أن حكام العرب كان غرضهم من دخول الحرب ليس دحر العصابات اليهودية وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني له أنما كان التحاسد والتباغض بين بعضهم البعض هو الغاية المنشودة من هذه الحرب فقد كان " الملك فاروق يضمر الحسد من الملك عبد الله " (٣) فلكل منهما أهداف من الحرب مخالفة

---

(١) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الأول ص ١٣٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) محمد حسنين هيكل برنامج برنامج " مع هيكل " حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " مرجع سابق .

(٣) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٧ مرجع سابق

للآخر ولقد سعى كل واحد منهما إلى تكوين تحالفات لإفشال خطة الآخر " فالأردن تؤيده العراق أراد التدخل عسكريا كي يؤمن أجزاء من فلسطين التي خُصِصَتْ للدولة العربية حسب خطة التقسيم في حين أن مصر تؤيدها السعودية أرادت أن تعوق خطة الأردن / العراق بإلغاء التقسيم " (١) .

لذا جاء قرار الملك عبد الله " بإلغاء منظمة الجهاد المقدس الفلسطينية ، وجميع القوى والعصابات التابعة لها ، وإلغاء جيش الإنقاذ المؤلف من المتطوعين ، وطلب إلغاء الهيئة العربية العليا لفلسطين ، ووضعت خطة محكمة لإبعاد الفلسطينيين من ميدان الجهاد والسياسة ، وعن كل ما يتعلق ببلادهم ومستقبلهم وحياتهم " (٢) .

لقد جاءت هذه القرارات متسقة مع إستراتيجية الملك عبد الله التي " بدت وكأنها تسير في توافق مع بن جوريون فما كاد يستأنف القتال وتنهزم قواته في اللد والرملة – أو يسحبها عمدا – في مؤامرة بين جلوب والصهيونية ، حتى قرر الملك عبد الله إيقاف القتال بدون انتظار قرار مجلس الأمن "(٣) تاركا القوات المصرية تنهزم وتطرد مما استولت عليه من أراض (النقب) .

ويذكر لنا الأستاذ محمد حسنين هيكل حكاية عن الملك عبد الله قائد الجيوش العربية تظهر كيف كان الملك عبد الله يفكر ؟ وكيف كانت المعركة تُدار ؟

" ذهبت إلى عمان وجاءت عليها غارة، غارة من طائرة واحدة إسرائيلية ضربت قنبلة قرب قصر رغدان في نفس اليوم الذي جاء وزراء الخارجية العرب يقابلون الملك عبد الله لأنه كان قائد الجيوش العربية كلها المفروض القائد الأعلى، لكي يقرروا وقف إطلاق النار أم لا ، فأنا طلعت المقر لقيت الملك عبد الله يتمشى في القصر صباحا بعد ما جاءت الغارة امبارح بالليل وفرضوا إطفاء نور كامل في عمان، وأنا طالع على قصر رغدان، قصر رغدان منور، فأنا رحت لقيته يتمشى في الجنينة منتظرا وزراء الخارجية، قلت له : يا أفندم القصر منور عمان تحت مظلمة، قال لي : " أنت عايز يقولوا إن ملك هاشمي أطفأ أنواره خوفا من اليهود ؟ أنا امبارح لما جاءت الغارة أنا لم

---

(١) نفسه ص ٢٨ .
(٢) السيد محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ٢٤ ط ٢ .
(٣) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٨ مرجع سابق .

أسكت أنا خرجت بره القصر وأخذت رشاشا ومعي مناور وهو صار يرصد الطائرة وأنا أطخ !! "

ما هذا ؟ هل هذه حرب ؟ الحرب تحتاج أولا إلى علم، تحتاج إلى ما هو أهم ، تجنيد موارد، تحتاج ما هو أهم إلى تراكم تجارب (١)

ولم ينس حيدر باشا متواطئا مع الملك فاروق أن يخفي حقيقة ما يجري على أرض فلسطين فراح يصدر البيانات الكاذبة عن حقيقة الوضع في المعركة " كانت أنباء القتال كما تصفها البلاغات الرسمية مطمئنة إلى حد يشعر معه من يقرؤها أو يسمعها أن الدول العربية توشك أن تدخل تل أبيب . من أجل هذا لم يتحمس الرأي العام لفكرة وقف القتال أو إعلان الهدنة "(٢)

وجرت اتصالات بين الدول العربية أسفرت عن قبول الهدنة لمدة ثلاثة أسابيع لأنهم يعرفون بواطن الأمور الخافية على الشعوب .

ولم تستغل الدول العربية الهدنة بتزويد جيشها بالعدة والعتاد ، كما أنها لم تعمل على تنظيم صفوفها وأحكام خططها وفقا لسير المعركة ومع ذلك رفضت مد الهدنة ثلاثة أسابيع أخرى واستمرت البلاغات الرسمية الكاذبة تمني الناس بقرب دخول تل أبيب ! " وإنهم لكذلك إذ أذاعت هذه البلاغات الرسمية أن جناح الجيش الأردني المتصل بالجيش المصري ، والمرابط في بلدتي اللد والرملة ، قد تخلى عنهما ، فاستولى عليهما اليهود . ومن يومئذ بدأت حركات الجيوش العربية تبعث إلى النفوس شيئا من الريبة ، وإن أبى الناس أن يصدقوا أن قوة إسرائيل تستطيع أن تتغلب على جيوش الدول العربية الست المشتركة في القتال . **وبدأ الناس يسمعون بعد ذلك عن تخلى بعض الجيوش العربية عن البعض الآخر ، وعن تجسس بعض العرب الفلسطينيين لحساب اليهود** . لذا بدأ التفاؤل الأول يذوي شيئا فشيئا " (٣)

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " مرجع سابق .

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " الجزء الثالث ص ٤٨ مرجع سابق

(٣) نفسه ص ٤٩ .

واستمر القتال بين العرب واليهود ينتقل من السيئ للأسوأ بالنسبة للعرب . وبدأت القوات العربية تنسحب من مواقع احتلتها كبئر سبع الذي سبق أن استولت عليه القوات المصرية بتضحيات وخسائر فادحة ، وازداد الأمر سوءا بحصار اليهود لقوات من الجيش المصري في الفالوجا .

وفي تلك الأثناء سعى الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة لوضع أساس للصلح بين إسرائيل والدول العربية فلما فشلت مساعيه الحميدة في التوصل لصلح " رأي أن يرفع إلى الأمم المتحدة تقريرا برأيه في الموقف وطريقة حله . وقد رفع هذا التقرير بالفعل واقترح فيه أن تعطى منطقة النقب للعرب ، وأن يعوض اليهود عن ذلك بأن يعطوا منطقة الجليل الغربي المجاورة للبنان . وكان هذا التقرير سيعرض في الجمعية العامة للأمم المتحدة حين ينعقد بباريس في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٨ .

ونظرا لأن هذا التقرير كان أفضل الحلول للقضية آنذاك فإن اليهود قاموا باغتيال الرجل النزيه برنادوت مبعوث الأمم المتحدة لأن تقريره يقضي على أحلامهم التوسعية ونظر الناس في كل الأمم إلى التقرير الذي وضعه على أنه وصية لرجل شريف ، وأن من واجب الأمم المتحدة أن تقر هذه الوصية وتنفذها . ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه الوصية ؟

لقد كانت تدرك أن لها مصلحة كبرى في قبولها . وكانت إنجلترا وأمريكا قد بعثت إليها تبلغها أنها إذا قبلتها وجدت تأييدا تاما من الدولتين الكبيرتين ومن مجموعة الدول الدائرة في فلكهما ، وهذه المجموعة تؤلف أغلبية عظمى في الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن ثمة ريب في أن إسرائيل ستقف كل جهدها في سبيل هذه المقترحات التي أدت إلى أن يقتل اليهود برنادوت ، فهي إن فعلت انقلبت الكفة في الأمم المتحدة وأصبح العرب موضع عطفها بعد أن كان اليهود موضع هذا العطف .

لكن الدول العربية نظرت إلى المسألة من ناحية أخرى فهي إن أقرت مقترحات برنادوت أقرت التقسيم الذي طلبته الأمم المتحدة ، والتي قامت الدول العربية في وجهه وحاربته بقواتها المسلحة (١) .

---

(١) نفسه ص ٥٢ .

وهنا تتجلى آفة من أعظم آفات كثير من العرب تغليب ما قد يراه كرامة شخصية أو مصلحة ذاتية على مصلحة الأمة ، أو بمعنى آخر أن الحاكم العربي على استعداد أن يضحي بمصلحة الأمة في سبيل محافظته على زعامته الجوفاء ، فسياسته للأمة مبنية على موروث جاهلي وهو أن العداوات دائمة والمصلحة غائبة ، وهذا مما أضر بالعرب أبلغ الضرر قديما وحديثا مع أن من حسن السياسة أن " المصالح هي التي تدعو إلى قيام الحرب واشتعال العداء ، والمصالح هي التي تدعو إلى عودة السلام ، وكما قال لوريان لمرستون . لا عداء دائم ولا صلح دائم وإنما مصلحة دائمة " (١)

ويُعرِّف الباحثون في العلوم السياسية " الدبلوماسية " بأنها " العقل الذي يمثل قوة الوطن في صلاته بالعالم الخارجي لأنها تجمع بين جنباتها العوامل المختلفة التي تمثل قوة الدولة ، وتحاول استغلال هذه العوامل بمهارة في دعم سلامة الدولة والمحافظة على كيانها ، وذلك بكسب الأصدقاء ، وشل إرادة الأعداء وتفتيتها . ويصل التوفيق الدبلوماسي إلى الذروة عندما ينجح في تحويل الأعداء إلى أصدقاء ، أو على أقل تقدير إلى محايدين " (٢) إلا أن ممثلي الدول العربية في الجمعية العامة للأمم المتحدة آنذاك اختلفوا ما بين دبلوماسيين يرون قبول مقترحات برنادوت لأنها أفضل ما يمكن الحصول عليه في ظل ضعف القوات العربية وتشتتها ، وما كان من صراع خفي بين الحكام العرب ، واختلاف سياساتهم وميل معظم القوى العظمى لقبول هذه الاقتراحات ، وبين من غلبت عليه طبيعته العربية فرأى أن مقترحات برنادوت تعد تراجعا عن السياسة التي انتهجتها الدول العربية ابتداءً من العداء المطلق لليهود وانتهاءً برفض التقسيم والاستمرار في الحرب حتى النهاية وإن كان ذلك يعني ضياع مزيدا من الأرض ، وخسران الدول العظمى لأن هذا ما وعدوا به الجماهير المتحمسة ولا يستطيعون أن يتراجعوا عنه حفاظا على ماء وجوههم ولتذهب فلسطين إلى الجحيم . وأخيرا انتصر رأي ثالث غريب لكنه يتناسب مع طبيعة العرب **وهو أنهم لا يصوتون مع مقترحات برنادوت حتى لا يُعَدُّوا متراجعين عن قرار الحرب ، وموافقين**

---

(١) السفير محمد التابعي " الدبلوماسية في الإسلام " ص ١٣٤دراسات قومية تصدر عن مركز النيل للإعلام .

(٢) د. محمد توفيق رمزي " علم السياسة أو مقدمة في أصول الحكم " ص١٧٢ مكتبة النهضة المصرية ط ٢

على التقسيم ، وأن يَبَلِّغُوا انجلترا وأمريكا سرا أنهم يقبلون بهذه المقترحات إذا أقرتها الأمم المتحدة !!

أرأيتم عقلية أغبى من هذه ؟! أرأيتم جبنا أشد من هذا ؟! ممثلو العرب يجبنون عن الموافقة صراحة على قرار هو الأصلح لهم في المقابل أن اليهود يبذلون غاية جهدهم لإفشال هذه المقترحات التي تحد من طموحاتهم التوسعية على حساب أرض العرب الذين لا يملكون جرأة اتخاذ قرار فيه صالحهم وهكذا اختار العرب المستحيل : أن يرفضوا المقترحات اختيارا ، ويقبلونها قسرا ! اختاروا أن يبلغوا إنجلترا وأمريكا أنهم لا يعارضون ما اقترحه برنادوت ولكنهم ، **لا يستطيعون أن يصوتوا صراحة معه . فإذا أقرته الأمم المتحدة قبلوه أساسا للصلح وتسوية الموقف في فلسطين !!!** " (١)

وفي مقابل هذا الموقف العربي الغبي الجبان بل الموقف الخائن لأن الساسة العرب ضحوا بمصلحة الأمة في سبيل محافظتهم على زعامتهم الجوفاء !! في مقابل ذلك " كان اليهود يبذلون غاية الجهد في هذه الأثناء لإقناع الدول كلها بأن موقف العرب ليس له من مظهر ما يسمح من بعد بالاعتماد عليهم وبأن اقتراح برنادوت لا يسمح لإسرائيل بالتوسع من غير أن تضطر إلى اتخاذ موقف غير ودي إزاء الدول العربية وبأنهم سينفقون في إصلاح منطقة النقب من الجهد والمال ما لم ينفق العرب منه شيئا أثناء القرون الطويلة المتعاقبة التي كان هذا النقب في أثنائها في حكمهم . واستطاع اليهود ببراعة أن يكسبوا إلى جانبهم عددا من الدول كفل لهم عدم نفاذ ما اقترحه برنادوت ، وكذلك انفضت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ولم يفد العرب منها شيئا مما كانوا يطمعون فيه " (٢)

والنتيجة أن رفضت المقترحات واستأنف القتال وضاعت فلسطين !!!

إن مواقف المسئولين العرب آنئذ كانت بدون شك لحماية كرامتهم وضرورة لبقائهم السياسي ، فبعد أن أثاروا شعوبهم إلى درجة كبيرة من الحماس من أجل المشكلة الفلسطينية ولقنوهم بتصريحات متوقعة للانتصارات واخفوا عنهم التدهور في الموقف العسكري بقدر ما استطاعوا ، فإنهم لم يستطيعوا عقد سلام دون أن يضعوا أنفسهم في

---

(١) د.محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج ٣ / ص ٥٢ مرجع سابق .
(٢) نفسه ج ٣ / ص ٥٣ .

موقف حرج لأن السلام يعني – في هذه الحالة – إما تنازل عن معظم فلسطين لليهود بعد حرب " حوربت " لمنع هذا الظلم ، وإما أن السلام يعني اعتراف المسئولين العرب بالهزيمة وهو ما يمكن أن يعزى إلى سوء إدارة الحرب المزري من جانب الحكومات العربية (١)

وقد كتب جلوب قائد القوات الأردنية في حرب فلسطين حول هذا الموضوع يقول " لست أعرف على مدى التاريخ عملا في مثل هذا القدر من الحمق والتهور أتى به رجال تقع عليهم مسئولية الحكم .. لقد ضاع مستقبل شعب فلسطين ضحية لتعدد السياسات العربية وعدم وضوح هدف نهائي للعمل بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك حد أدنى للتنسيق بين هذه السياسات " (٢)

وفي النهاية وطبقا لاتفاقيات الهدنة الدائمة حصلت إسرائيل على النصيب الأكبر وهو ما يصل إلى ٢٠.٩٣٢.٠٢٣ دونم في حين تبقى للعرب ما مساحته ٦.١٠٥.٠٠٠ دونم منها ٥.٧٥٥.٠٠٠ دونم هي مساحة الضفة الغربية ، و٣٥٠.٠٠٠ دونم مساحة غزة ، وفي حين كان قرار التقسيم يعطي ٤٢.٨٨ % للعرب و ٥٦.٤٧ % لليهود ، أصبحت النسبة بعد الحرب واتفاق الهدنة ٢٢.٦ % للعرب ٧٧.٤ % لليهود .

ولقد قُسِّم الجزء المتبقي من أرض فلسطين بين الملك فاروق ملك مصر ، والملك عبد الله ملك شرق الأردن ، فقد قام الملك عبد الله بضم الضفة الغربية الفلسطينية ، وإعلان المملكة الأردنية الهاشمية ، وكذلك قامت مصر في العهد الملكي بوضع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية .

كان ذلك خطأً تاريخيا قاتلا ، لم ينتبه إليه العرب ، ذلك لأنه كان الواجب العربي يحتم – إذا خلصت النوايا – أن تقام دولة فلسطين على ما تبقى من أراضي فلسطينية (الضفة الغربية ، وقطاع غزة) منذ إعلان الهدنة عام ١٩٤٩ ، ولا ينتظرون حتى تضيع كل الأراضي الفلسطينية في يونيو ١٩٦٧ ثم ينادون بحكم ذاتي للشعب الفلسطيني على أراضيه المحتلة بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

---

(١) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ٢٩ مرجع سابق .
(٢) نفسه ص ١٧

تصور كم عاما أضاعها الحكام العرب على شعب فلسطين ؟! أربعة وأربعين عاما (منذ إعلان هدنة رودس ١٩٤٩ إلى اتفاقية أوسلو ١٩٩٣) تغيرت فيها الأمور : قويت إسرائيل وكثر عددها وعتادها واستوطنت الأراضي المحتلة ، وضعف العرب وكثر اللاجئون الفلسطينيون واستوطنوا البلاد العربية ، لقد كانت القوى العربية قادرة على إيصال الضفة الغربية مع قطاع غزة بشريط أرض يمكن قيام دولة فلسطينية على الأرض التي كانت تحت السيادة الأردنية والمصرية ، ولكن عامل الوصاية على الشعب الفلسطيني أخَّر القضية لهذه الأعوام الطويلة ، ولو أن الشعب الفلسطيني تمكن من إدارة شئونه بنفسه لتغير وجه التاريخ في هذه المنطقة على الإطلاق ولكان ما يسعى الفلسطينيون للحصول عليه الآن قد تحقق عام ١٩٤٩ . (١)

وترتب على هذه الحرب الفاشلة ، والوصاية الظالمة أن نزح أكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني إلى الأردن وقطاع غزة وسوريا ولبنان وانتهي بهم الوضع إلى العيش كلاجئين في البلاد التي نزحوا إليها . وهكذا انتهت حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل أو على الأصح بين العرب والعرب ، والعرب والإسرائيليين على أرض فلسطين ! انتهت الحرب وأصبحت إسرائيل من الناحية العملية دولة قائمة على أرض فلسطين وقد عقدت بين إسرائيل وبين الدول العربية هدنة دائمة ، وقد أعلنت أمريكا وإنجلترا وفرنسا أنها تكفل بقاء الحالة في الشرق الأوسط بكل الوسائل المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة وفي غير ميثاق الأمم المتحدة (٢)

كما اتخذت إسرائيل تجاه الدول العربية منذ إبرام الهدنة سياسة صارمة تقوم على أساس الردع الحاسم والرد العسكري العنيف على أي حادث تافه من قبيل أعمال التسلل عبر خطوط الهدنة .

وكان بن جوريون ورئيس أركانه موشى ديان حريصين على إظهار القوة العسكرية لإسرائيل وتوتير الموقف على خطوط الهدنة بقصد حمل الدول العربية على قبول إسرائيل والاعتراف بها وبقوتها والتخلي عن أي تفكير في قتالها ففضلا عن الهجمات

---

(١) د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي " إسرائيل إلى زوال " دار الأمين للنشر والتوزيع ص ١٣٧

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج ٣ / ص ٤٤ مرجع سابق .

العسكرية على القرى العربية بما لا يتناسب مع ما يرتكب من حوادث [1] ، دأبت إسرائيل على القيام بمناورات قرب خطوط الهدنة . وقد صرح ديان بأن مثل هذه التصرفات ضرورية ليس من أجل حمل الدول العربية على فرض سيطرتها التامة على حدودها فحسب ، وإنما لوضع سكان إسرائيل وجيشها في حالة عالية من التوتر كذلك وإلا كف هؤلاء السكان عن أن يكونوا شعبا مقاتلا منظما .

ولقد أجبرت السياسة الإسرائيلية هذه الحكام العرب على مهادنة إسرائيل وعدم التفكير في شن أي هجوم على إسرائيل كما أجبرتهم على قمع القوى المنادية بتحرير الأراضي الفلسطينية من العدو الصهيوني أو حتى المطالبة بالإصلاح الداخلي ومقاومة الفساد أو المطالبة بالديمقراطية !!

وبهذا خرجت الجيوش العربية المنظمة من الصراع العربي / الإسرائيلي . فكل الحكام العرب انشغلوا بسياستهم الداخلية عن القضية الفلسطينية حتى الرئيس جمال عبد الناصر الذي يعده مريدوه العدو الأكبر لإسرائيل والمدافع الأول عن الحقوق الفلسطينية اعترف في وقت مبكر جدا (في مؤتمر باندونج ١٩٥٥) [2] بقرارات الأمم المتحدة عامي : ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ بشأن تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، كما أنه لم يسع لمواجهة إسرائيل عسكريا لذا لم يشن حربا هجومية وقائية واحدة ضد إسرائيل رغم علمه – يقينا – بعزم إسرائيل على شن حرب وشيكة على مصر (حدث هذا في ٥٦ ، ٦٧) ، وبعد جلاء العدوان الثلاثي وتوقيع اتفاقيته تأكد اعتراف عبد الناصر – الرسمي – بإسرائيل وبحقها في الوجود ، وعليه فإنه لم يطلق رصاصة واحدة نحوها لمدة إحدى عشرة سنة (من ٥٦ – ٦٧) رغم الاستفزازات الإسرائيلية المتكررة ، التي وصلت إلى حد قيامها باحتلال منطقة " العوجا " و"

([1]) كما حدث في أكتوبر ١٩٥٣ عندما قامت قوة إسرائيلية بقيادة آرئل شارون بالهجوم على قرية " قبية " الأردنية انتقاما لمقتل امرأة وطفليها وهدمت عدة منازل وقتلت أكثر من ٥٠ وأصابت ١٥ من سكان القرية .

([2]) تمكن عبد الناصر من إدراج الصراع العربي الإسرائيلي في جدول أعمال مؤتمر باندونج ، وجعل البيان الختامي يتناول نصا يدعو إلى تطبيق قرار الأمم المتحدة على فلسطين ، وتحقيق حل سلمي للقضية الفلسطينية ، وهو ما يعني الاعتراف الصريح بحق إسرائيل في الوجود على الأراضي الفلسطينية وفقا لقرارات الأمم المتحدة لسنة ١٩٤٧ ، ١٩٤٨

الكونتيلا " المصريتين ووصل عدد القتلى المصريين من جراء هذه الغارات إلى ١٤٧ جنديا مصريا [١] غير الجرحى .

فقد اتبع عبد الناصر منذ حرب السويس سياسة المحافظة على الحدود مع إسرائيل ، وصرح عبد الناصر لصحيفة الصاندي تايمز اللندنية بأن سياسته هي بناء القوة الاقتصادية للعالم العربي ورفع مستوى المعيشة فيه إلى أن يجيء الوقت الذي يكون قد وصل إلى التطور الذي يتيح له ممارسة ضغط كاف على الإسرائيليين يحملهم على تفهم عدالة الموقف العربي [٢]

وكان الفكر السائد لدى العناصر الفلسطينية الراديكالية هو دفع الدول العربية إلى الحرب وتصعيد أعمال المقاومة ضد إسرائيل بما يؤدي إلى تفجير الموقف .

وفي المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في مايو ١٩٦٥ اتهم السوريون عبد الناصر بالتستر خلف قوات الطوارئ الدولية لتجنب الحرب مع إسرائيل ، وردد الأردن نفس النغمة . [٣]

وعلى الرغم من مؤتمرات القمة العربية فإن وحدة الصف التي استهدفها عبد الناصر كانت لا تخفي الانقسامات العربية وتعارض سياسات الدول التقدمية والمحافظة . واستخدمت القضية الفلسطينية كقميص عثمان يلوح به المزايدون من السوريين والعراقيين والفلسطينيين ، وكان عبد الناصر واضحا في شرح الموقف تجاه إسرائيل ووضع الحكومات والمنظمات العربية أمام حقائق الموقف موضحا أن العرب غير مستعدين للمواجهة مع إسرائيل . بل عليهم أن يحشدوا طاقاتهم ويدعموا قواتهم بالتدريب المتواصل والأسلحة الحديثة خلال سنوات طويلة .[٤]

---

(١) في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ اخترقت إسرائيل حدود الهدنة وشنت عدوانها على قطاع غزة ، وراح ضحيته ٣٨ قتيلا ، ٣١ جريحا ، وفي نهاية أغسطس شنت هجومها على قطاع غزة ، وأسفر الحادث عن مقتل ٣٩شخصا ، وفي الشهر التالي احتلت إسرائيل منطقة العوجة المنزوعة السلاح ، وفي أكتوبر ١٩٥٥ احتلت القوات الإسرائيلية الكونتلا ، وفي الشهر التالي شنت هجوما عنيفا من قاعدة العوجة أودى بحياة ٧٠ شخصا .انظر د. لطيفة محمد سالم " أزمة السويس " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٢٩ .

(٢) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " دار الشروق ص ٦٠ .

(٣) نفسه ص ٦١ .

(٤) نفسه ص ٦١ .

لقد أجبر الجيشُ الإسرائيلي المسلح بأحدث الأسلحة الغربية وتأييد أمريكا ودول الغرب الحكامَ العرب على مهادنة إسرائيل وعدم التفكير في شن أي هجوم على إسرائيل وقد جاءت الحروب الكلامية التي شنها العرب على إسرائيل وأمريكا بديلا عن التفكير في حرب حقيقية وبهذا خرجت الجيوش العربية المنظمة من الصراع العربي / الإسرائيلي . وتفاديا للمواجهة المباشرة مع إسرائيل وحلفائها من الغرب أبدى الرئيس عبد الناصر استعداده لقبول المساعي التي تبذلها تلك الدول من أجل التوصل إلى سلام مع إسرائيل وحرص على أن تظل خطوط الهدنة المصرية الإسرائيلية هادئة (١)

وتنجح العنصر العربية الراديكالية ، والاستفزاز الإسرائيلي في جر عبد الناصر إلى إشعال الموقف فأنهي مهمة قوات الطوارئ ، وأغلق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية . وهكذا تلبد الموقف ونجحت إسرائيل في اصطياد الديك الرومي (هكذا كانت تسمي إسرائيل خطة حرب ٦٧) . فأنزلت بمصر هزيمة ساحقة فقدت مصر فيها سيناء وقطاع غزة كما خسرت الجانب الأكبر من قواتها المسلحة .

ولم تكتف إسرائيل بذلك بل دفعت قواتها إلى سوريا واستولت على هضبة الجولان المنيعة ، وفي نفس الوقت استولت القوات الإسرائيلية على مدينة القدس العربية ، وعلى الضفة الغربية لنهر الأردن .

وبذلك استولت إسرائيل على فلسطين كلها كما استولت على مناطق من الأراضي المصرية والسورية والأردنية .

سعى مجلس الأمن للتدخل وإيجاد حل للمشكلة ، وبعد مداولات طويلة أصدر قراره الشهير رقم ٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧ الذي يقضي بانسحاب إسرائيل من أراضي عربية حسب التفسير الإسرائيلي ، ومن الأراضي العربية حسب التفسير العربي التي احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وأن تنهي كل الدول حالة الحرب ، وأن تحترم السيادة والإقليمية والاستقلال السياسي لكل دول المنطقة وحقها في العيش بسلام في نطاق حدود مأمونة ومعترف بها .

---

(١) نفسه ص ٤٧ .

كما نص القرار على ضمان حرية الملاحة في الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين ، وإنشاء مناطق منزوعة السلاح . (١)

وبقبول مصر/عبد الناصر لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ظلت القضية الفلسطينية تعامل كمشكلة لاجئين فقد كان الشاغل الأول للدول العربية التي احتلت أجزاء من أراضيها أن تزيل آثار العدوان ، ولم يكن الفلسطينيون ليقبلوا أن تتقلص قضيتهم لتصبح مشكلة لاجئين ، كما أن مصر عندما قبلت القرار رقم ٢٤٢ ، فإنما كان ذلك راجعا إلى ما حصلت عليه من " آثر جولدبرج " المندوب الأمريكي لدى مجلس الأمن وغيره من المندوبين من تأكيدات بأن القرار يتعلق بنزاع ١٩٦٧ وحده ، حيث إن القضية الفلسطينية لم تكن مطروحة على المجلس (٢)

ورغم موافقة مصر على قرار مجلس الأمن إلا أن إسرائيل عملت على إفشال جميع الجهود الدولية لتحقيق الانسحاب من الأراضي المحتلة بل إنها تمادت في إقامة المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة ، وحاولت تهويد الضفة الغربية ، وعلى هذا بدأت مصر حرب الاستنزاف للقوات الإسرائيلية إلى إن قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣م (٣)

قضت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ على غرور قادة إسرائيلي ودعتهم للتفكير جديا في تسوية سلمية بعد رفضهم الدائم لها اعتمادا على قوتهم وضعف العرب .

وأثناء حرب أكتوبر المجيدة وجه السادات من مجلس الشعب الدعوة لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط تشارك فيه الدول الخمس المتمتعة بعضوية مجلس الأمن الدائمة .

وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ صدر قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ ليصبح هو والقرار رقم ٢٤٢ أساس التسوية الشاملة بين الأطراف العربية وإسرائيل . وينص القرار على دعوة الأطراف إلى وقف كل أعمال القتال والنشاط الحربي فورا خلال ١٢ ساعة على

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٣٥

(٢) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " مرجع سابق ص ١٣٤

(٣) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، و د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " ص ٢٣٥ .

الأكثر وذلك في المواقع التي احتلتها يوم ٢٢ أكتوبر وبدء تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ بكل أجزائه فور وقف إطلاق النار على أن تبدأ فورا المفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الرعاية المناسبة بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط .[١]

معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية

عقد مؤتمر كامب ديفيد في الفترة من ٥ إلى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وتقدمت مصر بمشروعها القائم على أساس توقيع معاهدات سلام تشمل التنفيذ الكامل للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وانسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة مع ترتيبات أمنية وإقامة علاقات سلام ووضع جدول زمني لتنفيذ الالتزامات المتبادلة . ودعا المشروع المصري الأطراف العربية الأخرى للانضمام .

كما تضمن المشروع أحكاما عن تسوية المسألة الفلسطينية تتضمن فترة انتقالية وممارسة الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير قبل انتهاء تلك الفترة ، كما تتضمن أحكاما بشان القدس على أساس انسحاب إسرائيل وتشكيل مجلس بلدي مشترك وضمان حرية العبادة والوصول لأماكنها ، وأحكاما بشأن تمكين اللاجئين من العودة أو التعويض .[٢]

نجحت خطة كيسنجر في التعامل مع النزاع العربي الإسرائيلي بسياسة الخطة خطوة وإقامة السلام على مراحل ، ولكن ظل نجاحها قاصرا على مصر وإسرائيل بسبب تبني سوريا والأردن ومنظمة التحرير لمبدأ لا تسوية سلمية مع إسرائيل قبل انسحابها الكامل دون شرط أو قيد من الأراضي العربية المحتلة ولقد شجع الاتحاد السوفيتي هذه السياسة – وربما هو الذي أملاها على حلفائه العرب – حتى يضمن تبعية هذه الدول له . إذ لو حُل الصراع العربي الإسرائيلي سلميا بمبادرة أمريكية لانعدمت حاجة هذه الدول للتحالف معه إذ أن لجوءها إليه كان لمعاونتها في الحصول على حقوقها المشروعة ونكاية في أمريكا حليفة إسرائيل .

ولقد تمكنت مصر من توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في ٢٦ مارس ١٩٧٩وقد نصت المعاهدة على ممارسة مصر لسيادتها الكاملة حتى حدودها الدولية

---

(١) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " مرجع سابق ص ٩٠
(٢) نفسه ص ٩٦

(مع فلسطين تحت الانتداب) وانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء واستخدام مطارات رفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض المدنية وحدها وحرية الملاحة في قناة السويس وفقا لاتفاقية القسطنطينية وفي مضيق تيران وخليج العقبة كممرات مائية دولية وإقامة طريق سريع بين سيناء والأردن بالقرب من إيلات مع ضمانات لحرية المرور بين مصر والأردن ومرابطة قوات عسكرية وضع الاتفاق تفاصيلها ومواقعها . وبعد توقيع المعاهدة وتمام الانسحاب المرحلي تقام العلاقات الطبيعية بين مصر وإسرائيل .

أما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد تضمن اتفاق كامب ديفيد خطة للتسوية على مراحل : الأولى مرحلة انتقالية تمتد خمس سنوات تنقل فيها إلى سلطة فلسطينية منتخبة سلطات ومسئوليات حكم ذاتي كامل مع وضع ترتيبات أمنية وأخرى لعودة النازحين الفلسطينيين أثناء ١٩٦٧، وفي المرحلة الثانية تجرى مفاوضات بين ممثلي الفلسطينيين وإسرائيل ومصر للاتفاق على الوضع النهائي ، ومفاوضات أخرى لعقد معاهدة سلام إسرائيلية أردنية تشارك فيها نفس الأطراف عدا مصر وتجرى هذه المفاوضات – بنوعيها – في موعد لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية وعلى أساس القرار ٢٤٢ .(١)

جبهة الرفض العربية

إن منظمات الفلسطينية بدعم من الاتحاد السوفيتي والحكام العرب الراديكاليين رفضت الاشتراك في مباحثات السلام المصرية الإسرائيلية بالرعاية الأمريكية بل وشكلوا جبهة للصمود والتصدي من ليبيا والجزائر والعراق واليمن الديمقراطية وسوريا ومنظمة التحرير لمقاطعة نظام السادات سياسيا .

عُقِد مؤتمر قمة عربية في طرابلس في ديسمبر ١٩٧٧ بدعوة من العقيد معمر القذافي حضرته سوريا والجزائر والعراق واليمن الديمقراطية ومنظمة التحرير وليبيا وقام بدراسة الأوضاع العربية بعد زيارة القدس واعتبر هذه الزيارة خرقا خطيرا لمبادئ وأهداف النضال العربي ضد العدو الصهيوني وتبديدا لحقوق الشعب الفلسطيني وخروجا على الوحدة العربية ومخالفة خطيرة لميثاق الجامعة العربية وقرارات القمم

---

(١) نفسه ص ١٠٦ ، ١٠٧

العربية وانسحابا من جانب مصر من جبهة النضال ضد العدو الصهيوني . وقرر تجميد العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة المصرية وعدم التعامل معها على المستويين العربي والدولي ومقاطعة اجتماعات الجامعة العربية التي تعقد في مصر .(١)

تراجع جبهة الرفض عن مواقفها

لقد تضافرت مجموعة من العوامل أثرت على مجمل الأوضاع في المنطقة العربية وعلى مقومات مفهوم الأمن القومي الإسرائيلي، حيث شهد عقد التسعينيات تحولات وتطورات غيَّرت مفاهيم كثيرة كانت راسخة، وقلبت موازين كانت مستقرة، فقد اختفت الدولة السوفيتية من الخريطة السياسية العالمية، وأدَّى انتهاء الحرب الباردة إلى فقدان العديد من الدول العربية الفاعلة حليفها الإستراتيجي القديم، وإلى انعدام هامش المناورة أمامها، الأمر الذي قلَّص إلى حدٍّ بعيد قدرتها على شن حرب ضد إسرائيل، ولكنها أدَّت إلى تقوية الموقف الإسرائيلي في الميزان الإستراتيجي، فضلاً عن اتساع نطاق هجرة اليهود السوفييت وبخاصة من العلماء وذوي الكفاءات والخبرات، وتنامت العلاقات الروسية الإسرائيلية حتى تُوِّجت بتوقيع اتفاق للتعاون الدفاعي والأمني في ديسمبر ١٩٩٥.

وفي ظل انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة في الساحة العالمية، تم توطيد التحالف الإستراتيجي الأمريكي / الإسرائيلي، وامتد إلى مجال أنظمة التسلح الكبرى التي تعتمد في الأساس على الثورة التكنولوجية، كما أبرزت تلك التطورات العالمية علو شأن الاقتصاد والاتجاه نحو التكتلات الاقتصادية.

أدى موقف منظمة التحرير المؤيد للرئيس العراقي صدام حسين ورفضها إدانة غزوه للكويت إلى الإضرار بصورتها العامة على الساحة الدولية فضلا عن تدهور علاقاتها مع السعودية والكويت وبقية دول الخليج وفتور علاقتها مع مصر وبقية الدول العربية التي وقفت في وجه العدوان العراقي . وأدى تدهور علاقاتها بدول الخليج إلى فقدان الموارد المالية الضخمة التي كانت تحصل عليها سواء من حكوماتها أو من الجاليات الفلسطينية التي تعمل بها والتي اضطرت أعداد كبيرة منها إلى الرحيل منها في أعقاب الحرب . كما تأثر موقف الأردن لاتخاذه نفس الموقف المؤيد لصدام حسين .

---

(١) نفسه ص ١٠٩

وبعد انتهاء حرب الخليج كان هناك إجماع دولي يؤكد على ضرورة العمل من أجل تسوية القضية الفلسطينية دعماً للاستقرار في الشرق الأوسط .

ونتيجة لهذه الظروف تراجعت الدول التي رفضت اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية / الإسرائيلية عن مواقفها ، وتبنت خيار السلام وعقدت منظمة التحرير اتفاقية إعلان مبادئ مع إسرائيل في أسلو ١٩٩٣ ، كما عقدت الأردن معاهدة سلام مع إسرائيل في عام ١٩٩٤ . ووافقت سوريا على اتفاقية سلام مع إسرائيل عام ٢٠٠٠ ولكن إسرائيل تراجعت عنها في اللحظة الأخيرة .

ويوم ٢١ مايو ٢٠٠٨ صرح مصدر مسئول فى وزارة الخارجية السورية أن سوريا وإسرائيل بدأتا محادثات سلام غير مباشرة تحت رعاية تركيا.

ونقلت وكالة الأنباء السورية عن المصدر قوله " أعرب كل منهما (سوريا وإسرائيل) عن رغبته في إجراء المحادثات بنية حسنة وقررا متابعة الحوار بينهما بجدية واستمرارية وذلك لتحقيق هدف السلام الشامل وفقا لمرجعية مؤتمر مدريد للسلام .

وفيما يشبه عرض لمطالب إسرائيل من سوريا مقابل التخلي عن الجولان قالت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني إن سوريا يجب أن تنأى بنفسها عن إيران وتقطع العلاقات مع «حزب الله» اللبناني وحركة " حماس " إذا أرادت التوصل إلى سلام مع إسرائيل.

هذا عن دول المواجهة أما ليبيا فقد قد أعلنت في ديسمبر ٢٠٠٣ بشكل مفاجئ عن امتلاكها برنامجا نوويا سريا وأعربت عن استعدادها التخلي عن برامج أسلحة الدمار الشامل وقدمت تفاصيله للوكالة الدولية للطاقة الذرية .

كما أن معمر القذافي استقبل وفدا من اليهود الإيطاليين، الذين عاشوا في ليبيا سابقا، لإجراء محادثات بشأن إمكانية دفع تعويضات عن ممتلكات اليهود الليبيين الذين طردوا من البلاد في أعقاب حرب ٦٧ بالشرق الأوسط . وقد وصفت الخطوة بأنها تحول كبير آخر في سياسة ليبيا.

ونتيجة لهذه السياسة الليبية فقد أنهى الاتحاد الأوروبي العقوبات الاقتصادية التي كان قد فرضها على ليبيا واستمرت ١٢ عاما بسبب قضية لوكربي ، كما رفع الحظر

الذي كان مفروضا على الأسلحة كرد فعل على تخلي ليبيا عن برنامجها لأسلحة الدمار الشامل وعدد من الخطوات الأخرى التي وصفت بالايجابية نحو الغرب والولايات المتحدة. (1)

مبادرة السلام العربية وحل مشكلة الصراع العربي / الإسرائيلي

وكانت البلاد العربية قد وافقت بالإجماع – بما فيهم سوريا – على مبادرة السلام السعودية التي تقدم بها الأمير عبد الله لمؤتمر القمة العربي المنعقد في بيروت في ٢٨-٣-٢٠٠٢ .

ولقد صادق المؤتمر بالإجماع على المبادرة السعودية، التي أصبحت بعد تلك المصادقة مبادرة السلام العربية وهي تلخصت في الشروط التالية :

١- الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة بما في ذلك الجولان السوري، وحتى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧، والأراضي التي مازالت محتلة في جنوب لبنان.

٢- التوصل إلى حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، يتفق عليه وفقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة.

٣- قبول قيام دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ٤ يونيو ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة تكون عاصمتها القدس الشرقية

٤- عندئذٍ تقوم الدول العربية بما يلي :

أ- اعتبار النزاع العربي –الإسرائيلي منتهياً، والدخول في اتفاقية سلام بينها وبين إسرائيل مع تحقيق الأمن لجميع دول المنطقة.

ب- إنشاء علاقات طبيعية مع إسرائيل في إطار هذا السلام الشامل .

ج- ضمان رفض كل أشكال التوطين الفلسطيني الذي يتنافى والوضع الخاص بالبلدان العربية.

د- يدعو المجلس المجتمع الدولي بكل دوله ومنظماته إلى دعم المبادرة.

---

(1) نقلا عن وكالة الأنباء العالمية BBC بتاريخ ١٢ أكتوبر ٢٠٠٤

هـ- يطلب المجلس من رئاسته تشكيل لجنة خاصة من عدد من الدول الأعضاء والأمين العام، لإجراء الاتصالات اللازمة لهذه المبادرة، والعمل على تأكيد دعمها على كافة المستويات في مقدمتها مجلس الأمن والأمم المتحدة .

وهكذا أصبح أمل الدول العربية هو اعتبار النزاع العربي – الإسرائيلي منتهيا لو قبلت إسرائيل قيام دولة فلسطينية على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ٤ يونيو ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة تكون عاصمتها القدس الشرقية . وهذه المساحة لا تمثل سوى ٢٢.٦ % فقط من أرض فلسطين !!

والعجيب أن إسرائيل رفضت هذه المبادرة وتصر على احتلال الأراضي العربية

أما عن كيفية الخروج من هذا المأزق وكيفية استعادة أمجادنا العربية والإسلامية انظر كتابنا " هذه استراتيجيتهم فماذا نحن فاعلون ؟ " .

* * *

الفصل العاشر

الحساب الختامي للصراع العربي الإسرائيلي

عرفنا في الفصول الثلاثة الأخيرة حقيقة المشروع الصهيوني : النشأة ، والهدف ، وآلية التنفيذ ، كما عرفنا ما آل إليه الصراع العربي / الإسرائيلي فبعد أن كان اليهود يحلمون بوطن قومي في فلسطين في كنف الفلسطينيين أصحاب الدولة ، صار الحلم الفلسطيني هو إقامة وطن قومي في كنف دولة إسرائيل !

والسؤال الآن ما موقف العرب شعوبا وحكومات مما جرى ؟ وما استراتيجيتهم التي أعدوها للخروج من هذا المأزق الراهن ؟ وما آلية تنفيذ هذه الاستراتيجية ؟

إذا كان الموقفان : الأمريكي الغربي ، والإسرائيلي الصهيوني يستمدان قوتهما من تأييد غالبية شعوبهم ، وقوة سلاحهم ، وتقدم علومهم ،وتقدم صناعاتهم ، وقوة اقتصادهم ، وسيطرتهم على البلاد العربية الأخرى إما بالاحتلال المباشر الكلي كفلسطين والعراق أو الاحتلال المباشر الجزئي كسوريا ولبنان ، أو الاحتلال غير المباشر – عن طريق وجود قواعد أمريكية ضخمة – كقطر والكويت والسعودية .. فإن الموقف العرب – مع الأسف – ليس فقط غير موحد بل متضارب وأحيانا متصارع فليس هناك إجماع عربي على شيء فلا هدف موحد ، ولا خطط مدروسة ، ولا حتى فهم صحيح للحقيقة الصراع .

الحكام العرب والمخطط الصهيوني

النُظُم العربية نُظُم دكتاتورية في عمومها لا تستمد شرعيتها من تأييد شعوبها ولم تصل لسدة الحكم بالاقتراع الحر المباشر بين أكثر من مرشح كسائر حكام الأمم المتقدمة إنما جثموا على صدور شعوبهم إما عن طريق الانقلابات العسكرية أو الوراثة أو الانتخابات المزورة هذه هي الطرق الثلاثة التي لا يعرف حكامنا طرقا سواها للوصول إلى كراسي الحكم .

لذا فإن حكام العرب يستقوون بأمريكا على شعوبهم بدلا من الاستقواء بشعوبهم على أعدائهم ، والشعوب بدلا من العمل على تحرير أنفسها أولا من حكامهم الطغاة عن طريق الممارسة الإيجابية للعملية الانتخابية لاختيار من يمثلهم : في رئاسة الجمهورية ،أو البرلمان ، أو مجلس الشورى أو المجالس المحلية ... يتقاعسون عن أداء هذا الواجب الديني الوطني ، ومن يذهب منهم للإدلاء بصوته يذهب غالبا ليصوت لصالح أصحاب الرشاوى الانتخابية أو للعصبية القبلية وليس هناك من يصوت لصالح الوطن . وهذا هو سر ضعف الأمة العربية وهوانها . حكام مستبدون وشعوب سلبية جاهلة ،ونخب إما أصحاب مصالح أو عبيد لأيديولوجيات أجنبية علمانية أو سلفية رجعية .

التنظيمات الإسلامية والمخطط الصهيوني

نتيجة لفشل الحكام في التصدي الجدي لأعداء الأمة ، ونتيجة لاستبدادهم وقهرهم لشعوبهم ، وغياب العدالة الاجتماعية تكونت جماعات وتنظيمات تبنت الخيار العسكري كحل للصراع العربي الصهيوني ، والذي عمل على ظهور هذه الجماعات عدة أسباب هي :

١– فشل الحكومات العربية في التصدي للمخططات الصهيونية التي استشرت في المنطقة كالسرطان ، بل راح بعضها يعمل على تنفيذ هذه المخططات .

٢– استبداد الحكام واستئثارهم بالحكم ، ووقوفهم ضد التداول السلمي للسلطة ، غياب الحريات ، وعرقلة قيام أحزاب جديدة تعبر عن آمال الشعوب ، وإجهاض الأحزاب القديمة .

٣– المذابح اليومية التي ترتكبها أمريكا وإسرائيل في العراق وفلسطين ولبنان ، والتي لم يعد السكوت عليها ممكنا وقد طفح كيل العدوان .

وتتميز هذه الجماعات بعدة سمات :

١- قلة عددها وعتادها .

٢- افتقارها إلى الحنكة السياسية التي تؤهلها لتحديد مصائر شعوب .

٣- السعي إلى تنفيذ أجندتها الدينية أو السياسية دون تنسيق مع حكوماتها .

٤- تبني أفكار مثالية أيديولوجية أو شعارات عنترية .

٥- مصلحة الجماعة أو التنظيم مقدمة على المصلحة الوطنية إن تعارضتا .

٦- عدم احترامها للمعاهدات التي أبرمتها حكومتها مع إسرائيل . (١)

الشعوب العربية والمخطط الصهيوني

فيغلب على الشعوب العربية الحماس للقضية الفلسطينية والعراقية واللبنانية بسبب : خطباء المساجد ،والكتب الدينية التي تتناول هذه القضية ، وصور الاعتداءات الوحشية التي يبثها التلفاز كل يوم من الأراضي المقدسة الفلسطينية أو العراقية أو اللبنانية لكنهم لا يملكون فعل شيء إلا الدعاء للمجاهدين ، وعلى اليهود الملاعين ومن يعاونهم من الأمريكان والإنجليز ، وحكام العرب ، وقد يتبرع بعضهم للشعوب المحتلة بدراهم معدودة .

لكنهم بعد العودة من صلاة الجمعة أو بعد مشاهدة الصور الدامية للاعتداءات الإسرائيلية أو الأمريكية يعود معظمهم للانشغال بأعمالهم الدنيوية التي لا تتسم أغلبها بروح الإسلام والتي لا تتناسب مع حماسهم للقضية الفلسطينية أو العراقية إنما تتسم بعدم مراقبتهم لله ، و الإهمال ، وعدم الإخلاص ، والفساد ، والمحسوبية ، والرشوة ، واللهو المحرم ، و ...

فينطبق عليهم قول أبي العتاهية

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجري على اليبس

الكتّاب العرب والمخطط الصهيوني

تهدف الكتابات العربية عامة والدينية بصفة خاصة التي تتناول الصراع العربي الصهيوني إلى ر: كل مصيبة حلت بالعرب والمسلمين إلى اليهود وراح الكتاب يصفون اليهود بعدة صفات خارقة منها :

١- أن اليهود هم المتحكمون في العالم بما لهم من قوى خارقة في التأثير على صانعي القرار الغربي عامة والأمريكي خاصة .

٢- أن اليهود هم المتحكمون في الاقتصاد العالمي بما يملكون من كبرى الشركات و البنوك ، فإذا كان الاقتصاد العالمي يتحكم فيه خمس شركات كبرى فأصحاب هذه الشركات يهود .

٣- أن اليهود متحكمون في الإعلام الغربي بل الإعلام العالمي كله .

٤- أن إسرائيل تمتلك من القوة النووية والقوة العسكرية ما تستطيع أن تفني به أي قوة معادية لها .

٥- أن جميع ما ينزل بنا من محن ومصائب مصدر، الحقيقي هو اليهود .

٦- أن أي عمل إيجابي يهدف إلى خدمة الإسلام والعروبة فإن الذي يحبطه ويجهضه هم اليهود .

٧- إن جميع الشركات و المؤسسات الاقتصادية في الوطن العربي ملك لليهود ويديرونها من الباطن .

٨- أن أي رئيس عربي لا يمكن أن يتخذ قرارا مهما إلا بعد أن يجيز، اليهود

٩- إن أي كتاب أو فيلم أو مقال في جريدة أو مجلة أو شيء أيا كان فيه إدانة لليهود فإنه يصادر وإن صدر يجرم صاحبه ، ورما يصفي جسديا .

---

(١) انظر " فتح وحماس من مقاومة الاحتلال إلى الصراع لى السلطة " للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر .

ويستشهد هؤلاء الكتاب على صحة رأيهم بالنصوص الدينية كالتوراة والتلمود وبالكتاب المنتحل (١) على الصهيونية " بروتوكولات حكماء صهيون " الذي يؤكد على :

" أن السياسة لا تخضع للأخلاق ، وأن على اليهود أن يستعملوا الحيلة والدهاء والنفاق ويستغلوا الحربات العامة وإمكانيات النقد لتقويض كيان الدول، ويسعوا لإيقاعها في الحروب على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم ، وينبغي تركيز المنافسة في المجتمع ليجري الجميع نحو بريق الذهب ، ويصبح الدين والسياسة مهزلتين ويسود رأس المال كل شيء . و التأكيد على الصحافة وسيطرة اليهود عليها ، واستخدام المال والإعلام والعلم في التأثير على الدول، والاعتماد على أي أسلوب مهما كان غير أخلاقي كالرشوة والفساد والمرأة والغش والإرهاب، ومنها أن على الدولة اليهودية أن تعتمد على العنف والرياء، وعلى اليهود أن يستغلوا الخلافات بين الدول و يبسطوا نفوذهم عليها ولا يتركوا اتفاقا دون أن يكون لهم ضلع فيه. " (٢)

وبهذا صنع هؤلاء الكتاب دون أن يدروا من اليهود أسطورة خارقة وقوة لا تقهر حتى من القوى العظمى وترتب على ذلك أن عُدَّت أي محاولة لمحاربة اليهود من قِبَل العرب محكوم عليها بالفشل الذريع ، وهم بهذه الأوهام إنما يثبطون الهمم وينشرون اليأس ويحبطون الآمال .

وما على المسلمين إلا الانتظار إلى حين يجيء المهدي المنتظر – الذي حان مجيئه في زعمهم – لكي يخلصهم من اليهود .

وعاظ الدين والمخطط الصهيوني

إن بعض إخواننا من الكتاب المسلمين يشايعهم معظم الوعاظ الدينيين يريدون أن يحولوا الصراع العربي الأمريكي اليهودي إلى صراع عقدي بين الأديان الثلاثة ويتخطفون تصريحا من هنا ، أو فقرة في كتاب من هنالك ؛ لإثبات الصراع العَقَدِي معتقدين أننا لو سلمنا بأنه صراع عقدي وأن الأمريكان واليهود يحاربون من أجل عقائدهم الدينية فقط فإنه في هذه الحالة يمكن أن نحاربهم بنفس سلاحهم .

و هذا يعني دخول الإسلام الدين الحق في حرب مع المسيحية و اليهودية الديانتين الباطلتين مما يترتب عليه هزيمة أمريكا وإسرائيل وانتصار العرب والمسلمين !!

والدين الحق لا ينتصر بغير مؤمنين به يبيعون حياتهم من أجله .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } (التوبة : ٣٨)

إن الإسلام لا ينتصر بالشعارات الجوفاء إنما ينتصر بالإيمان الصحيح الذي يطهر القلوب ويوقظ العقول وينشط الأبدان ينتصر بالعلم الشامل لكل دروب الحياة ينتصر بالعمل جاد المخلص المبني على منهج علمي صحيح وهذا كله يحتاج لإعداد كبير وجهد ومثابرة .(٣)

فإن كان القصد من تحويل الحرب العربية الإسلامية مع الصليبيين الجدد واليهود الملاعين إلى حرب عقدية لشحذ الهمم وإطلاق الطاقات ، وإعداد العدة واستكمال أسباب النصر فنحن نؤيد هذا ونباركه .

وإن كانت مجرد شعارات جوفاء ، وخطب عصماء ؛ لإشعال حماسة دينية رعناء ، تنتهي بالدعاء على الأعداء ، بأن ييتم الله أولادهم ، ويرمل نساءهم ، ويجعل الدائرة عليهم ، وينفل المسلمين أنفالهم ، ثم يعود كل إنسان إلى ما كان يعمله من ترك الواجبات وارتكاب المحرمات فلا أهلا بها دعوة تحث على التواكل والسلبية .

إن أهم آفات الشخصية العربية النزعة الخطابية والإفراط في استعمال العبارات نفسها في موضعها أو غير موضعها ، وفي المناسبة الملائمة وغير المناسبة لها لا فرق مما يفقد أهم الكلمات معناها ، وينزع من أخطر العبارات مدلولها

---

(١) أثبتت الدراسات عدم صحة نسب هذا الكتاب لليهود أو الصهاينة ، انظر " فلسطين أرض النبوات الإلهية " لرجاء جارودي ، و" موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " لعبد الوهاب المسيري .

(٢) انظر " بروتوكولات حكماء صهيون " محمد خليفة التونسي دار التراث .

(٣) انظر كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللا أصولية " للمؤلف مكتبة مدبولي .

وتأثيرها في النفوس ، **فاللغة سلاح ذو حدين هي أمضى من السيف في يد من أحسن استعمالها ، وباهتة خاوية في يد أو على لسان من يفرط في دقتها ، ويتوسل استغلالها في كل حين ، فتنقلب اللغة على أصحابها . لذلك أصبحت كثيرا من الكتابات والخطب عبئا على الأمة وميدانا لفظيا نستغني به عن الواقع ، وحجابا يمنع الرؤية ، ومزيجا يتساوى فيه الرئيسي والثانوي ويضيع فيه الجوهري** .(1)

نحن نقول هذا لأن كثيرا من المسلمين بعد الهيمنة الغربية الأمريكية الصهيونية على البلاد العربية تزعزع إيمانهم بالله فيا طالما ارتفعت الأكف بالدعاء بالنصر للمسلمين وبالدحر للكفرة الملاعين وكانت النتيجة مزيدا من الهزائم للمسلمين ومزيدا من الطغيان و التجبر لأعدائهم فلابد أن يعلم الدعاة أن الدعاء وحده لا يكفي إنما لابد أن يشفع بالعمل الصالح والجهاد المستمر حتى يتحقق نصر الله .

{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (الحج : ٤٠)

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (التوبة : ١٤– ١٦)

من هو عدونا الحقيقي وشواهد التاريخ على ذلك ؟

لو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحط على أمة العربية الإسلامية كقطع الليل المظلم لاستمرت النهضة الإسلامية ولما غرقت البلاد الإسلامية في بحر الظلمات .

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلامية التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينية لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر " كان الحكم العثماني سيئا فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستارا من التخلف والتأخر في كافة المجالات ونواحي النشاط ، ومع ذلك فإن العرب في المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه ويرجع ذلك إلى الرابطة الدينية التي ربطت العرب بالعثمانيين فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوربية (بلاد الكفر) ، وكانت العاطفة الدينية في تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام وإلى ما بعد قيام الحرب العالمية الأولى وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلامية " (2)

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمة الإسلامية بل كانوا السبب أيضا في وقوعها في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صير الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن

لقد شهد الشرق والعالم العربي في ظل الاحتلال العثماني انحطاطهما الطويل الذي امتد قرونا بينما كان الغرب والعالم الأوروبي يصنعان نهضتهما ويمهدان لمد نفوذهما إلى كل مكان .

وهذا الانحطاط العثماني هو الذي جعل العرب في فلسطين وخارجها مكبلي اليدين أمام القوة العلمية والتكنولوجية والعسكرية التي فرضها الاستعمار الغربي عليهم ، والتي تسلَّحت بها الحركة الصهيونية لغزو فلسطين ، فالتخلف العثماني هو مصدر الداء . (3)

وشواهد التاريخ تؤكد أنه لا نصر بغير إيمان حقيقي ، و إعداد سليم ، و لا هزيمة إلا بسبب : ضعف الإيمان ، و الجهل ، والتخلف ، والخيانة ، و التواكل ، والاغترار بالنفس .

إن سبب نكبة الأمة العربية يرجع إلى ما أصاب الأمة العربية في العصور الأخيرة من وهن في الأخلاق ، وضعف في الإيمان والعزيمة الوطنية ، وما انتشر فيها من الفوضى وضعف التنظيم ، والغفلة الشديدة عن مواطن الخطر

---

(1) فيصل أبو خضرا " تاريخ المسألة الفلسطينية " ص ٢٢

(2) نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(3) نفسه ص ٣٤

المحدق بكيان الأمة العربية بسبب الغزوة الاستعمارية والمؤمرة الصهيونية ، والاستخفاف بالأخطار استخفافا ناشئا عن الإهمال وخور العزيمة والاتكال ، والجهل بنيات المستعمرين الرهيبة ومكرهم السيء (١)

والدارس للحروب التي انتصر فيها العرب والمسلمون يجد أنها تقوم جميعها على الإعداد الجيد والتوكل الصحيح على الله.

أما الهزائم فسببها جميعا : ضعف الإيمان ، والجهل ، والتخلف ، والخيانة ، والتواكل ، والغرور وتزيد الشعارات الجوفاء .

وإليك بعض الأمثلة من الهزائم الكبرى في تاريخ مصر والعالم العربي :

قنصوه الغوري السلطان المملوكي الذي لم يعمل على تحديث بلاده وتطويرها لتساير العصر ماذا قال عندما جاءه سليم الأول سلطان الترك غازيا ومسلحا بالمدافع قال : لن أحارب إلا بالسيف الذي حارب به رسول الله !

فكانت نتيجة هذا التخلف أن مات تحت سنابك خيل الأتراك ودالت دولته إلى الأبد .

ومحمد كريم حاكم الإسكندرية عندما طلب منه " نلسون" قائد الأسطول الإنجليزي " أن يسمح له بالمرابطة في المياه المصرية في انتظار مقدم الأسطول الفرنسي الذي لا قِبَل للمصريين بمواجهته ...انتهز السيد محمد كريم في كبرياء وصلف رسل الأسطول الإنجليزي وطلب منهم أن يسرعوا بالابتعاد عن المياه المصرية و إلا أطلق عليهم المدافع فإن مصر أرض السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها من سبيل فاذهبوا عنها . ولم تكن هذه المدافع التي هدد محمد كريم بإطلاقها إلا أربعة مدافع قديمة عفا عليها الزمن ولعله ليس هناك ما يكشف عن العزلة والجهل بأحوال الدنيا وما تطورت إليه أكثر من هذه العبارة من أن مصر أرض السلطان . لقد كان محمد كريم لا يزال يعيش في الوهم القديم من أن مجرد ذكر اسم السلطان من شأنه أن يخلع القلوب من الرعب ... وعندما جاء نابليون أبدى محمد كريم ومن معه بعض المقاومة لكن الأسلحة الحديثة حسمت قصة احتلال الإسكندرية " (٢)

واسمعوا أحمد عرابي وهو يتحدث عن احتلال الأسطول الإنجليزي للإسكندرية " انصبَّت نيران المدافع الإنجليزية على القلاع و الحصون والترسانة وسراي رأس التين وبالجملة على جميع أرجاء المدينة ولم تجاوبها مدافع القلاع – المصرية – إلا بعد أن أطلق الأسطول – الإنجليزي – نحو ٢٠ طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الأساطيل الإنجليزية وقلاع الإسكندرية بعد ذلك إلى منتصف النهار ثم أخذت الاستحكامات في التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبل الغروب . وحيث كانت استحكامات الإسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها يبنى بالحجارة من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتنا الإنجليز بالعدوان على غير استعداد منا وتأهب فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها . ولم يكن بالإسكندرية من حاميات الحصون غير ٧٠٠ رجل فقط من رجال المدافع ... وكانت قذائف المدافع القديمة لا تصل إلى المراكب الإنجليزية ومدافع أرسترونج – المصرية– لم يكن لها مساطر تعرف بها المسافات وحكم الإصابة بواسطتها " (٣)

ولماذا نذهب بعيدا فتاريخنا المعاصر مليء بالأحداث الشاهدة على ضعف الإيمان ، والتخلف ، والجهل ، والثقة الزائدة بالنفس إلى حد الغرور . فها هو الرئيس الملهم جمال عبد الناصر يطلق تصريحاته النارية بإلقاء إسرائيل في البحر ومن وراء إسرائيل – يعني أمريكا – بل ويعلن الحرب على إسرائيل بإغلاق مضيق تيران فماذا كانت استعداداته ليطلق هذه التصريحات العنترية ، ويتخذ هذه الإجراءات الصاعقة !.

سوف نعتمد على تصريحات كبار قادة الجيش المصري في ذلك الوقت الذين رأوا بأعينهم هذه المأساة التي دمرت العرب ومكنت لإسرائيل ، وضاعت فيها القدس ، وفلسطين ، وسيناء ، والضفة الغربية ، ومرتفعات الجولان والكرامة العربية .

يقول الفريق سعد الشاذلي :

---

(١) السيد محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ١٧٣

(٢) محمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " دار الشعب المجلد الثالث ص ٨٧٩

(٣) نفسه ص ١٠٩٨

" النكسة بتاعة سنة ٦٧ الحقيقة كنا نستحقها لأن طبعا ماكناش يجوز إن إحنا ندخل معركة بهذا الشكل وهذه الهرجلة وهذه التعبئة الممجوجة إزي إحنا ننتصر بعساكر يأتوا إلينا في سيناء لابسين جلاليب علشان يدخلوا الحرب دون أي تجهيز " (١)

ويقول الفريق أول عبد المحسن مرتجي :

" إن حالة القوات كانت في الحضيض والدفاعات بتاعتنا في سيناء ما كانتش مستكملة لأن فكرة الحرب ماكانتش موجودة في دماغ أحد ولا في ذهن الريس ... رئيس البلد ورئيس الجمهورية يعرف كل الحاجات دي عن القوات المسلحة ويعرف إن القائد بتاعه مش على كفاءة وهو قالها في كتاب " لعبة الأمم" مع كوبلاند قال له : أنا عارف إنه قائد القوات اللي موجود عندنا متخلف بالنسبة للحروب الحديثة .. طيب وبعدين قال له : إن الجيش ما يقدرش يصد شوية عصابات حيجي يحارب إسرائيل إزي .. إذن كانت كل المعلومات دي موجودة عنده إزي هو يتخذ الإجراءات اللي تخلي الحرب لابد أن تقع ... جئنا من اليمن تعبانين ده علاوة على الحالة الاقتصادية ما فيش بترول وما فيش بنزين وما نقدرش نعمل مناورات حتى لدرجة لما يقال لهم يا جماعة ده إحنا حنحارب إسرائيل .. د. محمد فوزي وقال لما نحارب إسرائيل يجيلك الفرج .. الكلام ده في مارس ٦٧ " (٢)

ويقول شمس بدران وزير الحربية آنذاك :

" كان عندنا قاذفات قنابل لكن قاذفات القنابل ما تقدرش تدافع عن نفسها وأن عندنا طائرات سوخي طيارة قاذفة مقاتلة بس كان مداها صغير جدا وحمولتها صغيرة بالنسبة إلى طائرات إسرائيل " (٣)

أما الزعيم المهيب صدام حسين فقد هدد إسرائيل بالحرق بالأسلحة الكيماوية ، وعندما جاءته قوات التحالف بقيادة أمريكا صرح قبل الحرب بأن عنده أسلحة بإمكانها إبادة جيوش العالم كله والنتيجة معروفة .

وغرق العرب في بحر الرمال المتحركة والله وحده يعلم متى نفيق من كبوتنا ونتقي الله في أنفسنا وأمتنا ؟

ليست – إذن – هزائمنا ترجع لقوة العدو ، وإنما ترجع لضعف إيماننا ، وتخلفنا ، و تفرقنا ، وعدم أخذنا في أسباب القوة والتقدم والوحدة .

ما أشبه الليلة بالبارحة

والقارئ المدقق للتاريخ يجد أن الهزيمة تأتي من الداخل أولا وتكون الهزيمة الخارجية نتيجة لها انظر مثلا : لحال العرب والمسلمين " عشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسي والتناحر العسكري مخيما على العالم العربي وفي ظل هذه الظروف نجح الصليبيون في زرع إماراتهم ومملكتهم . لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى وتم محو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام واحدة تلو الأخرى في طيات الموجة الصليبية .. لقد كانت هذه الكيانات – العربية– السياسية المتصارعة كلها متورطة تماما في الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر ومن ثم مضت قوات الصليبيين كما تمضي السكين في الزبد .

وفي طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارة الصغيرة واحدة تلو الأخرى وكان سقوط مدينة نيقية في أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية ، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة ، وذلك النذير بلا فائدة " (٤)

مع أن العرب في هذه الفترة كانوا هم الأقوى وكانوا هم الأكثر تقدما وتحضرا لكنها الفرقة قاتلها الله والطمع والحسد وحب الذات الملعونين في كل كتاب .

---

(١) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للترجمة والنشر ص ٣١٦
(٢) نفسه ص ٣١٧
(٣) نفسه ص ٣١٦
(٤) د. قاسم عبده قاسم " ماهية الحروب الصليبية " كتاب عالم المعرفة ص ٩٤ ، ٩٧

ليست هذه دعوة لليأس بل دعوة للأمل فهزمتنا نحن المسئولون عنها في المقام الأول وأن إزالة أسباب الضعف في مقدورنا وعندما نستكمل أسباب قوتنا سيولي العدو الأدبار وإن هذا ليس من الأمور المستحيلة بل من الأمور الممكنة فقط لو كل إنسان راعى الله فيما يقوم به من عمل .

هل إسرائيل حقا أقوى من العرب ؟

إن أعداءنا ليسوا عمالقة بل نحن الذين صيَّرنا أنفسنا أقزاما .

فبرغم أن الاستعمار الغربي كان متحالفا مع العصابات الصهيونية إلا أن العرب كان بمقدورهم إفشال مخططهم ودحر اليهود الصهاينة لكن الخيانة العربية كانت عاملا حاسما في هزيمة العرب " ولا ينسى التاريخ حقيقة الملك عبد الله الأول (ملك الأردن) الخاضع لأوامر الإنجليز ، المنفذ لسياسة الصهيونية ، المخادع للشعب العربي ، الخائن الأول في الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ ؛ فقد كان بإمكانه أن ينظف فلسطين من اعتداءات عصابات الصهاينة ، وخيانته واضحة في أكمل معانيها عندما تقدم الجيش المصري بالنقب وانتصر فأمر بِهَدْر ذخيرته بإيعاز من " جلوب " وعمل على إضاعة الوقت في قصف القدس وضواحيها ليخلق حجة مقبولة يتسلح بها مبررا عدم تمكنه من التقدم في الزحف بنفس ذخيرته ثم كان من اتصالاته السرية مع وايزمان وبن جوريون واستاء العقيد عبد الله التل الحاكم القدسي الأردني فاستقال ولجأ إلى القاهرة وقد أعلن أن خيانة الملك تعتبر الخيانة الدنيئة للقضية العربية ، وأصر الملك عبد الله الأول على التمسك بالقيادة للجيوش التي أصبحت في سنة ١٩٤٨ على أبواب تل أبيب فأمر بتقهقر الجيوش ليتنفس اليهود الصعداء وتُوَقَّع الهدنة بينهم وبين العرب ، وتم ذلك بخيانته التي قبض ثمنها ضم الضفة الغربية الفلسطينية إلى مملكته بحركة تمثيلية برلمانية بعد أن أذاع أنه سيعلن ضم فلسطين العربية كلها إليه " (١)

ولولا خيانة ذوي الأغراض من الحكام ما حدثت مأساة فلسطين ولو أن الدول العربية جميعا حينذاك اتحدت وتكتلت وكونت وطنا عربيا كبيرا واتحادا فيدراليا يجمعها ويوحد صفوفها ومساعيها وقواتها بحيث تكون حكوماتها وشعوبها قلبا واحدا ورجلا واحدا وقوة واحدة لما ضاعت الفرصة ، وتمكن أولئك الصهاينة من طرد العرب في فلسطين من بينهم والاستيلاء على دورهم وما يملكون (٢)

ويقول السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا الذي كان في بؤرة أحداث حرب ٤٨

" أصر الملك عبد الله على أن تكون له قيادة الجيوش العربية ، فعارضت أكثرية الدول العربية في هذا ، ثم عاد بعضها فوافق تحت تأثير الضغط البريطاني الشديد ، وتسلم الجنرال " جلوب " القيادة الفعلية للجيوش العربية ووقعت كارثة فلسطين على الشكل المعروف ، وكنت بطبيعة الحال معارضا لهذه القيادة الغبية الشاذة خوفا من تسلم القيادة العسكرية الفعلية في حرب فلسطين إلى قائد إنجليزي ؛ ليقيني أن الاستعمار الإنجليزي هو الخصم الألد الذي كان أساس البلاء في هذه القضية وفي معظم القضايا العربية " (٣)

إن الضغط الاستعماري الأجنبي على الأقطار العربية أدى على وضع القيادة العسكرية الفعلية للجيوش العربية في يد الجنرال " جلوب " الإنجليزي الذي أدار دفة المعركة بما يوافق أهواء السياسة البريطانية الضالعة مع اليهود ، وبدَّل الخطة العسكرية التي وضعها رؤساء أركان حرب الجيوش العربية – في معسكر الزرقاء – بالإجماع في أوائل مايو سنة ١٩٤٨ ، وسحب الجيش السوري المرابط على حدود المنطقة الشمالية من فلسطين بطريقة مكشوفة إلى جبهة سمخ حيث عرضه لخسائر فادحة ، كما غرر بالجيش العراقي ووجهه إلى مهاجمة مستعمرة – جيشر – التي كانت قاعدة من قواعد خط أيدن الحصين الذي أنشأه الإنجليز خلال الحرب لمقاومة الزحف الألماني ، وعاق الجيش الأردني الذي كان معسكرا حول القدس عن الدفاع عنها بضعة أيام لإعطاء الفرصة لليهود لاحتلالها ، ولولا استبسال المجاهدين الفلسطينيين وسكان القدس في الذود عنها لوقعت كلها بيد اليهود ، وقد منع " جلوب " الجيوش العربية من القتال الفعلي ، كما سحب الجيش الأردني من الرملة و اللد ، بعد أن نزع أسلحة المجاهدين الفلسطينيين مما أدى إلى سقوط منطقة الرملة و اللد وغير ذلك ولدينا وثائق بتفصيلات هذه المؤامرة " (٤)

---

(١) علي إمام عطية " الصهيونية العالمية وارض الميعاد " دار الشعب الطبعة الأولى ص ١٧٤

(٢) نفسه ص ١٧٨ .

(٣)السيد محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ٧٦، ٧٧

(٤) نفسه ص ١٨١ ، ١٨٢

إن استحكامات إسرائيل الضخمة المتمثلة في خط بارليف الحصين والساتر الترابي والمانع المائي وزراع الطيران الطويلة ، والمعدات الحديثة كل هذا لم يصمد أمام القوات المصرية ، وبعد ست ساعات فقط كان قد انهار وانهارت معه الإرادة الإسرائيلية .

لم تكن معداتنا في حرب العاشر من رمضان تختلف عن المعدات التي كانت معنا في هزيمة ٦٧ بل كانت أقل عشرات المرات كما صرح بهذا الرئيس السادات في كتابه البحث عن الذات .

" كنا نعلم أن تسليحنا كامل بلا شك وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك – قبل الخامس من يونيو ٦٧ – أقوى عشرات المرات من سلاحنا في أكتوبر ٧٣ " (١)

فماذا حدث إذن لتتحول الهزيمة الساحقة إلى نصر مؤزر ؟

إنه الإيمان الصادق ، والعمل جاد المخلص ، و إرادة النصر ، و التخطيط الجيد ، و التنفيذ المحكم ، وقبل كل هذا صيحة الله أكبر .

إن من أخرج إسرائيل من جنوب لبنان سنة ٢٠٠٠ ، وعجزت عن القضاء عليه سنة ٢٠٠٦ لم يكون قوى عظمى تمتلك أحدث الأسلحة ، وأقوى المعدات ، إنما كانت مقاومة وطنية مخلصة أعدت ما استطاعت من قوة مع العزيمة والصبر فكان النصر حليفها .

إن انتفاضة أطفال الحجارة التي انطلقت في ٨٧ و التي زلزلت أمن واستقرار إسرائيل ما كان مع القائمين بها أحدث الأسلحة ولا أقوى المعدات إنما كانوا فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى فكانت الحجارة في أيديهم أضر على أعدائهم من القنابل والصواريخ .

إن انتفاضة أطفال الحجارة ما قامت إلا على الإيمان بالله وإرادة النصر فكان من ثمارها أن تنازلت إسرائيل عن بعض الأرض المحتلة (غزة و أريحا) .

وفي ٢٣ أغسطس ٢٠٠٥ رحلت قوات الاحتلال بالفعل عن غزة وأخلى الإسرائيليون المستوطنات بأيديهم عنوة رغم إرادة المستوطنين الذين تشبثوا بها تشبثهم بالحياة يقول جل شأنه :

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }(الحشر : ١، ٢)

وليس معنى هذا ألا نستكمل قوتنا العسكرية ونعمل على تطويرها وتحديثها لكن قبل هذا نريد الإيمان الراسخ والعمل المثمر البناء والكف عن ترديد الشعارات الجوفاء .

أيها المسلمون اتقوا الله في أنفسكم واتقوا الله في دينكم واتقوا الله في أعمالكم واتقوا الله في أوطانكم حتى تكونوا أهلا للنصر .

إن اليهود ليسوا أبدا بهذه القوة التي يصورها لنا بعض الكتاب المسلمين ، ونحن لسنا أبدا بهذا الضعف .

إن الحقيقة التاريخية الواقعية و المشاهدة هي أن اليهود من أجبن شعوب الأرض ومن أضعف الناس وأن أي مقاومة تأثر فيهم وتقض مضاجعهم . والانتفاضة الفلسطينية خير شاهد على ذلك فقد أجبرت اليهود على التنازل عن بعض الأراضي الفلسطينية المحتلة وأن " استمرار الانتفاضة –كما يقول بعض المحللين العسكريين– هو إجهاض لإسرائيل لأن استدعاء القوة العسكرية يتطلب استدعاء إسرائيل لـ ١١.٥% من القوة العاملة. " (٢)

وإن المقاومة اللبنانية قد زعزعت الأمن الإسرائيلي وأظهرت عجز قواته ، وأن حرب العاشر من رمضان قد كادت أن تقضي على اليهود لولا الجسر الجوي الأمريكي .ولولا الدعم العسكري الأمريكي بأقمار صناعية، و بأسلحة جديدة لصارت إسرائيل أثرا بعد عين إذن هذا يعطينا مؤشرا مهما أن إسرائيل غير قادرة على حماية نفسها وأنها تحتاج دائما

---

(١) محمد أنو السادات " البحث عن الذات " ص ١٨٧ المكتب المصري الحديث ط الثانية .

(٢) حوار مع د. عبد الوهاب المسيري . قناة الجزيرة .

إلى من تحتمي به وإذا كانت أمريكا هي التي تحمي إسرائيل وتضمن لها أمنها من أجل دفاع إسرائيل عن مصالحها فإنه ببعض المقاومة الصادقة لإسرائيل وتهديد المصالح الأمريكية في الشرق – إذا استمرت أمريكا في دعمها لإسرائيل – من شأنه أن يغير الأوضاع ويقلب الموازين .

والحقيقة أن اليهود ليسوا إلا جماعة وظيفية استعملها الصليبيون الجدد لتحقيق أهداف استعمارية معتمدين على ضعف العرب ، و تخلفهم ، و تفرق كلمتهم وصدق رسول الله ﷺ القائل :

"يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فقال قائل: ومن قِلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: "بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ (ما يحمله السيل من وسخ) كغثاء السيل، ولينزعنَّ اللّه من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ اللّه في قلوبكم الوهن" فقال قائل: يارسول اللّه، وما الوهن؟ قال: "حبُّ الدنيا وكراهية الموت".(حديث صحيح أخرجه أبو داود و البيهقي)

فحب الدنيا وكراهية الموت هو العدو الحقيقي الذي هزمنا وبدلا من البالغة في وصف قوة عدونا نطهر نفوسنا ونعد ما نستطيع من قوة { وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } (النساء : ١٠٤)

إن ترص أعداء العرب والمسلمين بهم الدوائر ليس فقط هو السبب فيما صرنا إليه لكن تقاعس العرب أنفسهم عن نصرة دينهم وحماية حقوقهم ، وميلهم لممالأة أعدائهم بدلا من الاتحاد والتعاون مع بني جنسهم هو السبب الحقيقي لما نحن فيه من زل وهوان ، يشهد بهذا من رأى بعينه ضياع فلسطين وقيام إسرائيل .

" إن ما أخضع فلسطين للقوة اليهودية الغاشمة ، وما جعلنا نخسر فلسطين ليس فقط قوة الباطل الصهيوني ، وعبقرية السلام الغربي ، وحسن تنظيم العدو اليهودي بل أيضا وأساساً بسبب تخلفنا نحن ، وبسبب الفوضى القومية والوطنية التي نتخبط بها ، وبسبب الجهل الكامل لتاريخنا أولا وللنظام والانضباط ثانيا ، وبسبب الأنانية التي كان زعماؤنا ولا يزالون يتخبطون بها " (١)

ولا ريب أن لكل بلد عربي مشكلاتِه الخاصةَ التي تطفو على السطح، وتتقدم على فلسطين في قائمة اهتماماته، ولكن النظرةَ الفاحصةَ تَكْشِف عن أن جميع ما تُواجهه الأوطان العربية من مشكلات ناشِئ عن مشكلة فلسطين أساسًا، فالتشاغُل بالقضايا المحلِّية عنها، هو في أدنى حالاته سذَاجة وغفلة، وهو في أعدل حالاته تآمُر وخيانة، ولا شيء فوق هذا سوى الانتحار المادي، بعد الانتحار الخِيَاني الأخلاقي .. ومن الخطأ أن يَتَصَوَّر أحدٌ أن الشعب الفلسطيني هو المُسْتَهْدَف وحده من هذه الغارة الاستيطانية على فلسطين؛ لأن فلسطين لا تُمَثِّل في الواقع سوى موطئ قدَم للزحف القادم على ما حولها من بلاد الإسلام، على امتداد الهلال الخصيب، مِنْ الفرات إلى النيل .. أن كل ما وقع من أحداث الغزو الصهيوني لفلسطين وما حولها كان من عناصر الحُلْم الكبير، الذي راوَد خيال مُؤَسِّس الحركة الصهيونية، تيودور هرتزل خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، وما زلت بقية عناصر الحُلْم تَنْتَظِر أن تُوضَع مَوْضِع التنفيذ، ولا سيما مشروع قناة تَصِل البحر الأبيض بالبحر الميت، لتوليد الطاقة الكهربية من مساقطه، وإغراق شرقي الأردن، وربما كان من عناصره أيضًا . شق قناة بين البحر الأبيض وميناء إيلات، تُنَافِس قناة السويس، وتُنْهِي أهميتها، تمهيدًا لتخريب اقتصاد مصر، والإجهاز عليها، واقتطاع أجزاء لازمة من جَسَدِها لترتيع الكيان الصهيوني، وليست سيناء إلا جزءًا من حُلْم هرتزل الكبير.

أما لبنان وسورية والأردن والعراق فأمرُها أهونُ بكثير، وفي جُعْبة الصهيونية ومَن يُساندها من القُوَى الغربية العديد من المشروعات التقسيمية؛ لإعادة توزيع المنطقة سياسيًّا وطائفيًّا، وإيجاد كيانات يحكُمها ملوك طوائف، تُمَكِّن إسرائيل من التهام ما تُريد من جسد الوطن العربي.

وأما الجزيرة العربية فليست بعيدةً عن مُتَناول هذا الأخطبوط؛ فإن بينها وبين الدولة الإسرائيلية حدودًا مشتركة في البحر، وهي في الوقت ذاته مدخل إلى الخليج الذي تَتقاسَمه . أيضًا . دُوَيْلات، ولكن الأمر يحتاج إلى ترتيب على مراحل مُتَقارِبة أو مُتَباعدة.

باختصار: إن التخطيط يمضي إلى أوضاع يَعْجَز تَصَوُّر القادة في العالَم العربي والإسلامي الآن عن استيعابها، وهم غارِقون في بِحار التآمُر والدم، عاجزون عن حلِّ مشكلاتهم اليومية والجزئية، كما أن بعضهم لا يَثْبُت في موقعه من السلطة إلا بقَدْر ما يُقَدِّم للعدو من خِدْمات، وما يَرْتَكِب في حقِّ الإسلام وفلسطين من خِيَانات (٢)

---

(١) فيصل أبو خضرا " تاريخ المسالة الفلسطينية . الأزمة والحل " ص ٧

(٢) د. عبد الصبور شاهين مقدمة كتابة " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

هذا حال حكام العرب وحال شعوبهم وحال كثير من كتابهم لذا فإن تحَقُق المخطط الصهيوني حتى الآن كان جزاء وفاقا للعرب المسلمين الذي ضيعوا دينهم ودنياهم فأنى ينصرون ؟!

لأن الله تعالى اشترط لنصرة المسلمين أن ينصروه . فهل حقا نصرناه ؟

هل أدى كل منا واجبه نحو الله بالعبادة ونحو عباد الله بالعمل الصالح ونحو دنياهم بتعميرها ونحو الكون باكتشاف سننه و تطبيق علومه كما فعل الغرب بل كما فعلت إسرائيل ؟

لقد هُزِمْنا في معركتنا مع أنفسنا ، وهُزِمْنا في جهادنا مع العلم و التقدم ، وفي النهاية جلسنا نتباكى كالنساء ونرجو من الله النصر ، وأن يعجّل لنا بالمسيح المنتظر ؛ ليخلصنا مما نحن فيه من ذل وهوان .

إن هذا المشهد العربي الضعيف المتخاذل الباكي المُبْكِي ليذكرني بمشهد سقوط غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس و طرد العرب منها .

" وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة بعد انكسار أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا على شاطئ الخليج الرومي (البحر المتوسط) تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقف حوله نساؤه وأولاده ، وعظماء قومه من بني الأحمر . فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مرا وينشج نشيجا محزنا حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردَّد فيها الزفرات ، ويسبِق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفا يهتف باسمه ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا بشيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

" نعم ، لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال " (١)

نعم لكم أن تبكوا أيها المسلمون على ملككم بكاء النساء لأنكم لم تحتفظوا به احتفاظ الرجال .

ترى لو نزل المهدي والمسيح فمن سيحارب معهما وبأي سلاح سيحاربون بالسيف أم بالحجارة ؟!

" ومن قبل تساءل المسلمون الذين انهزموا في معركة «أحد» عن سبب هزيمتهم غير المتوقعة تلك، فأجابتهم كلمات الله :

{ أولمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثْلَيْها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم } (آل عمران : ١٦٥)

والمفاتيح عندنا أولاً وأخيراً، فإن لم نصل إلى اليوم الذي نبني فيه مختبراتنا ونشغّلها بعقولنا، ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا.. إن لم نُعِد تشكيل عقولنا لكي تعمل كما أراد لها الإسلام أن تعمل، فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم، ولن يكون بمقدور ألف سنة أخرى من الاتكالية وصور التعبّد والذكر القائمة أن تصنع المعجزة !!!

ذلك هو التحدّي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء..

وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ " (٢)

***

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي " العبرات " ص ٥٧ مكتبة مصر

(٢) عماد الدين خليل مقال بعنوان " نحو حضور إسلامي فاعل في العالم "